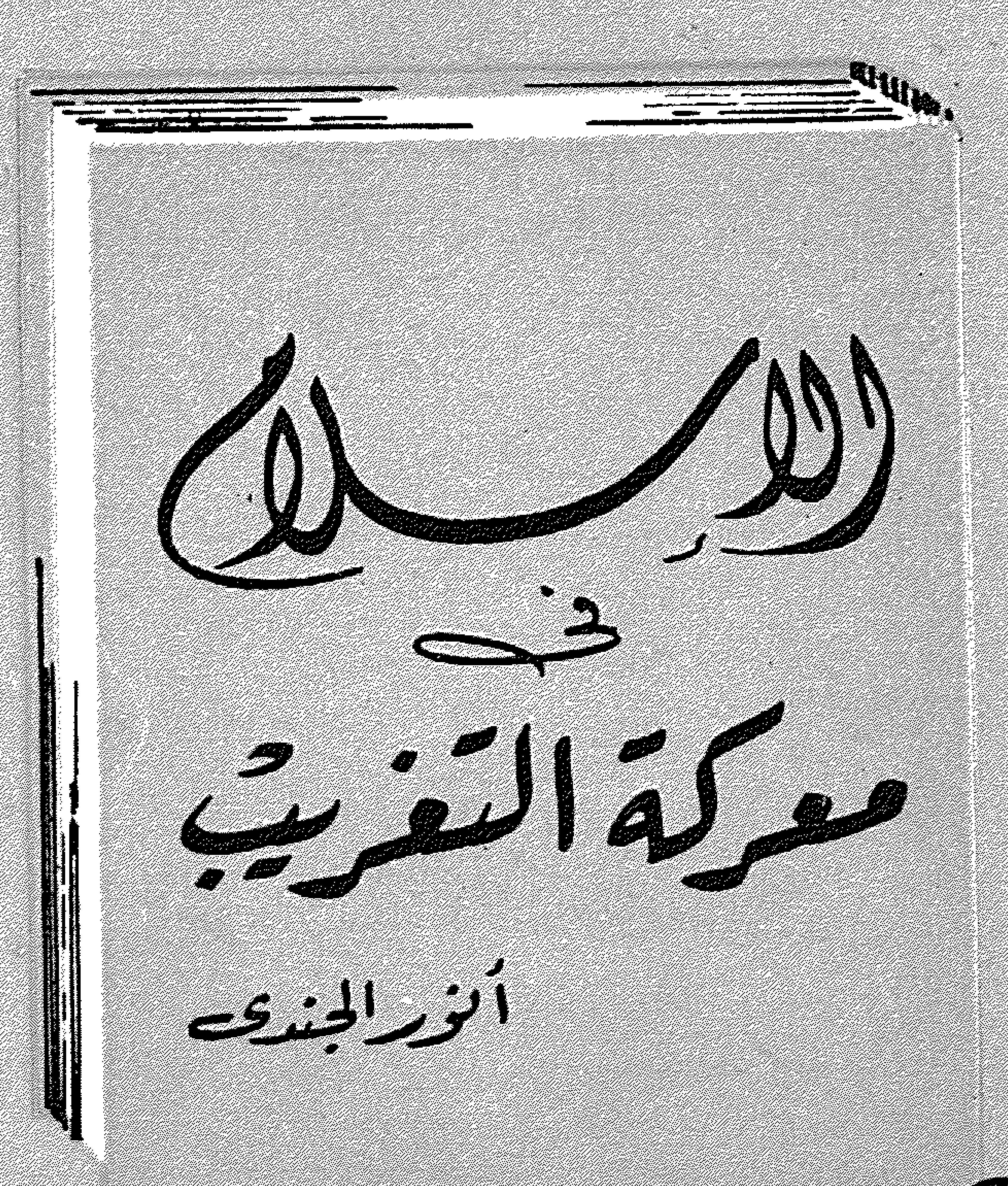


كتب إسلامية

العدد الرابع والثلاثون

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة

Bibliotheca Alexandrina
01703349

اهداءات ١٩٩٨

أ.د./ عبد العزيز برهام
رئيس قسم اللغة العربية الأسبق-الإسكندرية

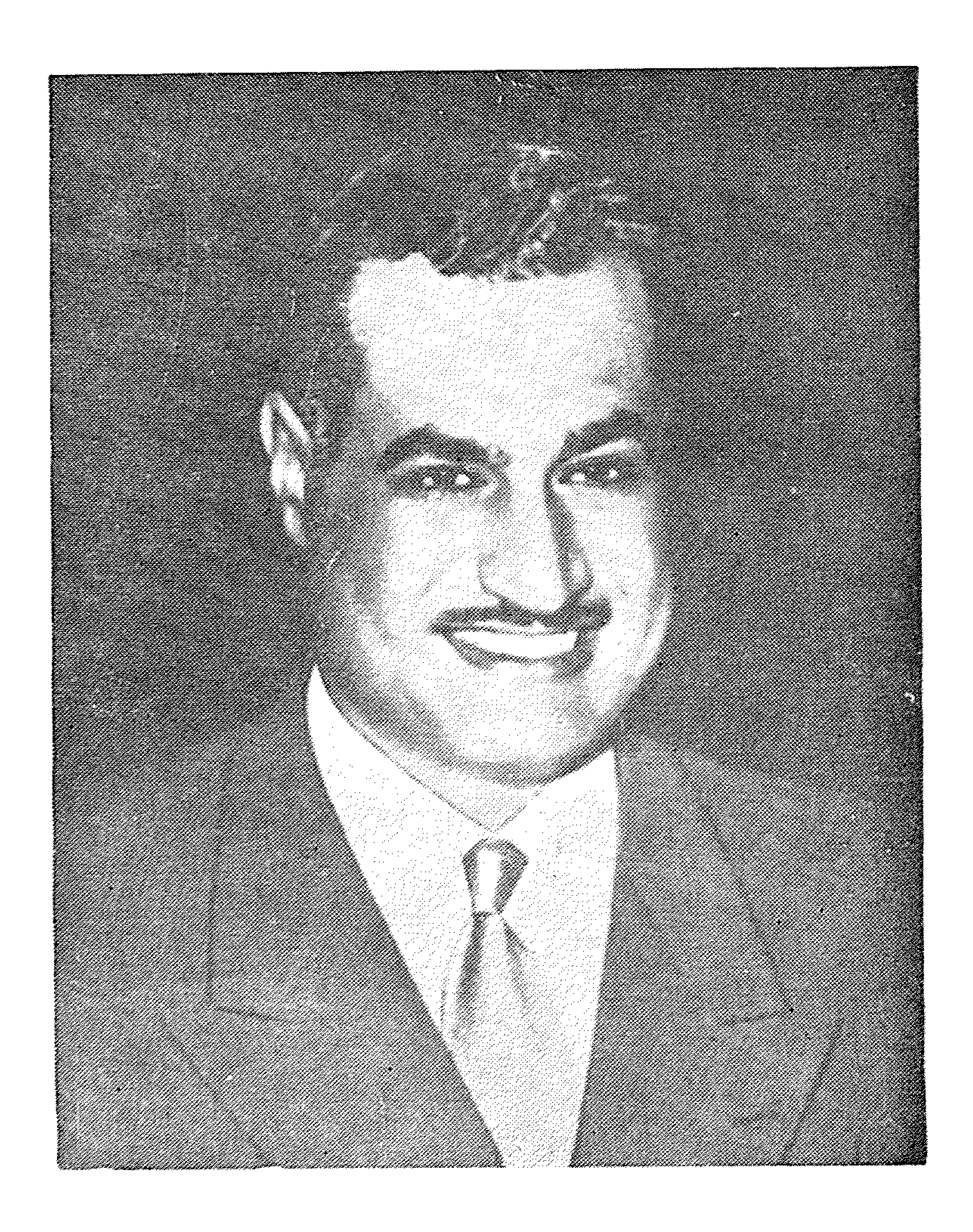
كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز برهام
رئيس قسم اللغة العربية
[illegible]
الإسكندرية

الإسلام في معركة التغريب

أنور الجندي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة



بسم الله الرحمن الرحيم

«يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ المؤمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا» .

(سورة النساء : ١٤٤)

«يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . . »

(سورة المائدة : ٥١)

الاسلام فى معركة التغريب

الدين

لم يتعرض فرع من فروع الفكر العربى للغزو الثقــافى كما تعرضـــس « الدين » ، ذلك لأن الدين كان ـ ولا يزال ـ فى العالم العربى وفى الشرق دعامة هامة من دعامات الثقــافة ومقوما من مقومات الأمة العربية ، وعنصرا حيا ايجابيا غير منفصل من عناصر السياسة والاجتماع والاقتصاد .

ولقد كان الاستعمار يعرف خطر « الدين » وأثره فى الحياة العربية ومدى أثره فى الايمان بالحرية ومقاومة الغاصب وانمـاء القوة وحراسة الثغور . ولما كانت هذه العوامل من أخطر الأخطار على بقاء الاستعمار فقد كانت خطته فى القضاء على مصدر هذه القوة : وهو الدين واللغة والتاريخ . وكان الدين اهمها .

وقد أعد خطته فى مقاومة الدين على نحو دقيق خفى يسرى فى معالم الفكر والحياة سريانا بطيئا حاسما فى المفاهيم المختلفة . وقد امتدت هذه الخطة فشـــملت الثقافة والصـــحافة والتعـليم والترجمة والبعثات الأجنبية ومفـاهيم الاجتماع وتحرير المراة . ومن أجل هــذا انطلقت دعوات الاســتشراق والتبشــير وظهرت مجموعات من دعاة التغـريب . ولما كان دين الغــالبية فى العالم العربى هو الاسلام فقد كانت الحملة كلها قد ركزت عليه باعتبــاره مصدر الثقافة والفكر والتراث المشترك .

ولقد استهدف الفزو الثقافى الى محاربة الاسلام للقضاء على روحه القوية فى مجال الحياة والفكر حتى تنطوى قوته وفاعليته فى مجال الاستعمار .

كان التعصب الدينى واضحا فى هذه الحرب . التى صدرت عن حقد بالغ وخصومه عنيفة . ولم تصطنع فى أى جانب من جوانبها (المنهج العلمى) الذى ابتدعه الغرب وأقام على أساسه أبحاثه ونتائجه .

الإسلام : دين وحضارة

وكان ابرز الأخطاء التى طبقها الغرب فى الحديث عن « الاسلام » انه لم يحاول ان يفرق بين المسيحية والاسلام فى مفاهيمها ومقوماتها .

ولذلك حمل فى الحرب على الاسلام نفس المعاول التى حملها فى محاربة المسيحية ابان عصر النهضة بغية اقصائها عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد أن تبين للغرب جمودها وعجزها عن مسايرة التطور . وبعد ان فسدت أساليب الكنيسة وظهرت أخطاء رجال الدين فى تسلطهم واستبدادهم وجمودهم ووقوفهم فى وجه الحرية والنهضة وغلوهم فى التعصب وبعدهم عن التطور .

ولقد كان الاسلام مختلفا أشد الاختلاف عن المسيحية فى هذه الناحية ، فان الاسلام لم يكن دينا فحسب ولكنه دين ونظام اجتماعى واقتصادى وسياسى كامل ، ولقد كان الاسلام متطورا دائما وقادرا على الاستجابة للحضارة والزمن وللبيئات المختلفة . وقد دخل هذه التجربة من قبل ولم يكن للاسلام كهنوت له صفة السيطرة والتحكم فى الناس والوساطة بينهم وبين الخالق .

ولذلك فان المقارنة بين المسيحية والاسلام من هذه الناحيـــة باطلة كما ان محاولة اخضاع الاسلام كدين ونظام لما خضعت له المسيحية ـ التي هي دين فحسب ـ ليس من الحق في شيء .

ولكن التعصب وشهوة الحقد الأعمى والرغبة في القضاء على روح الـدين وتنحية الاســلام عن نفـوذه في الحيـاة السياسية والاجتماعية والاقتصادية حالت بين دعاة التغريب والغزو الثقافي وبين كشف هـذه الحقـائق . ولم يســتطع اتبـاع المستشرقين والمبشرين من مفكـرينا التعرف الى هـذه الفوارق لانهم اتصلوا بالفكر الغربي قبـل ان يســتكملوا مفاهيمهم في الفكر العـربي ومقوماته .

واذا كان للاسلام في هذه الفترة التي بدأ فيها الغزو الثقافي مغمز فانما كان في تطبيقه لا في مقوماته وأصوله . هذه المقومات والأصول التي ظلت طوال القرون ضياء هاديا وقـوة حيـة . فان انصراف المسلمين عن مفاهيم الاسلام وضعف الحكومات وسيطرة الأتـراك العثمانيين اربعمـائة عام والتخلف في ميـادين الحرب والسياسة . والانصراف عن القوة والمقاومة . قد أحل عصرا من الضعف والركود والتـواكل والقوقعة وفـرض سلطان الحـكام المستبدين والعلماء الجامدين الذين أغلقوا باب الإجتهاد ووقفوا عند التقليد مما خلق غشاء دقيقا من الأوهام والبدع والخرافات التي حاولت أن تحجب جوهر الاســلام ونقاءه . وتحجزه وراء طبقة كثيفة من هذه الزيوف .

غير انه لم يخل جيل من مصلح ينبري ليكشف هذه الزيوف ويرفع هذا الغشاء ويدعو الى الاسلام المصفى . ويحاول ان يعود بالنـاس الى بسـاطة الاســلام الأول ــ ويسره وحقيقته الكامنة المختلفة .

وقد كانت دعوة محمد بن عبـد الوهاب فى أواخـر القرن السابع عشر الميلادى هى نقطـة الانطلاق فى تحـرير الاسلام من زيوف القرون الثلاثة التى فرضها الحكم العثمانى الجامد الذى انتهى الى الضعف والفساد ، بينما بدأت أوربا تستيقظ وتنقـل آثار العرب وتترجمها وتكون حضارتها وثقـافتها الجديدة وتتنبه الى دورها فى القضاءعلى الاسلام والسيطرة على الشرق فىمحاولة للانتقام من هزيمة الحروب الصليبية وخشية من اتساع نطاق الاسلام وتطويقه لأوربا عن طريق تركيا العثمانية التى وصلت الى أسوار « فينا » وبعـد ان توقفت من الجانب الآخـر عن طريق الأندلس عند مصب نهر اللوار .

ولقد كانت خطة الغرب فى السيطرة على العالم العربى والاسلامى تهدف أساسا فى القضاء على الاسلام :

١ ـ كقوة حرة قوية لا تقبل الذل والاحتلال .
٢ ـ القضاء على جوهر الدين فى مفاهيم الجهاد والمقاومة والحرية .
٣ ـ إقصاء الاسـلام عن الحياة السياسية والاقتصـادية والاجتماعية .

وقد اتجهت حملات الغزو الثقافى الى وجهتين :
١ ـ الدين بصفة عامة .
٢ ـ الاسلام بصفة خاصة .

ولما كانت الحملات موجهة من الفكر الغربى المسيحى فان كل الحملات التى وجهت الى «الدين» كانت مقصودا بها الاسـلام أساسا .

وقد تمثلت هذه الحمـلات على الدين فى انه ظاهـرة من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى وانما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

وان الديانات قيود واغلال التزمها الناس بدعوى انها منزلة خالدة ، وان وضع الدين فى جانب العقل يقضى بهدمه ، وان الدين لا يخلق الانسان . ولكن الانسان هو الذى صاغ الدين ، وليس الدين الا صدى الألم الذى يتردد فى نفوس المظلومين وان الدين حادث (عمرانى) له قدره (التاريخى) وليس له صلة بالاقتصاد .

الحملة على الاسلام

وقد واجه الاسلام حملات غزو ذات جوانب متعددة منها :

١ ـ الحملة على مفاهيم الاسلام وكتابه ورسوله وتاريخه .

٢ ـ الغزو عن طريق بعث اديان جديدة كالبابية والبهائية .

٣ ـ الغزو عن طريق تعميق تيار الالحاد فى العالم العربى .

ـ ١ ـ

وكانت الحملة التى قادها المستشرقون والمبشرون منذ ١٨٣٠ قد حاولت أن توهم بنهاية الاسلام ، ففى أوائل القرن العشرين كان هناك رأى يرى ان الاسلام « لم يبق من عمره الا قرنان » وهى نبوءةالسياسى المؤرخ « برايس » الذى قال أن احتكاك الاسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته .

او أن الاسلام سيذهب بذهاب الدولة العثمانية (الدكتور برون .ك. العرب والافريقيون) .

أو أن الاسلام قد يبقى اذا ترك لنفسه ، أما اذا احتك بالتمدن الحديث فانه يموت لا محالة (المستشرق لنز بعد سياحته فى تومبكتو) .

وفى الحالات الثـلاث التى تنبأ بهـا المستشرقون والمبشرون الغربيون لم ينتـه الاسـلام وكذبت نبوءاتهـم ، ولم يذهب الاسلام نتيجة لذهاب الدولة العثمانية ولا بعد احتكاكه بالعـلم والمدنية ، ولم يصـدق أيضا ما ادعاه غـيرهم من أن انحطاط المسلمين يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام نفسه لعدم موافقته لروح التمدن ـ كما ذكر المستشرق بيشون الالمانى ١٨٨١ فى كلامه عن تأثير الاسلام فى حياة أصحابه ـ كما حاول كتاب الغرب دائما تصوير المسلمين بصورة العـدد القليل وذلك بايـراد احصائيات مضللة :

ومع ذلك فقد عجـزوا عن اخفاء الحقائق . فقـد أشـار المستشرق (مرجليوث) فى بحث له عن مستقبل الاسلام (الهلال مجلد ١٦ ـ ١٩٠٦) ان الاسلام غالب فى افريقيا وشائع فى آسيا ومعروف فى أوربا وأمريكا . ولم يظهر ما يدل على توقف انتشاره وخصوصا فى القرن الماضى لأنه نهض نهضة جديدة .

وأورد قـول المبشر « شاتليه » من ان الاسـلام هو الدين الوحيد الذى يرتقى الآن وينتشر فى الهند والصين . أما الأديان الأخرى فانها آخذة فى الانحـلال كما أورد ما ذكره أحـد كبـار المستشرقين من ان الاسلام سيعم الهند كلها وقال ان جماعة كبيرة من الهنود يعتنقون الاسلام ليتحرروا من قيود الديانة البرهمية وكهانها .

وان الاسلام قد انتشر مؤخرا فى بلاد الصين حتى أوجس أهل أوربا من انتشاره مخافة ان يصير ديانة المملكة فيحمل أهلها على الممالك النصرانية فى أوربا مثل الحملات الصليبية فى العصور المظلمة . واشـار الى ان الاسـلام ينتشر فى الهند والصـين ومستعمرات هولندا بالموعظة الحسنة .

وأشار « مرجليوث » الى ان الاسلام انتشر فى افريقيا بالحسنى بعد ان انتهى عهد الدراويش ، وقد كان الظن ان يتوقف بعد ذهاب الحركة المهدية ، والحقيقة أنه لا يزال آخذا فى الانتشار .

وكذب « مرجليوث » ما رواه زملاؤه المستشرقون من أن انحطاط المسلمين يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام وقال : انى أرى المسلمين تحت سلطة المسيحيين ارقى من المسيحيين عقلا وأدبا ، واستشهد بقول المستشرق « روبل » الذى ذكر بعد سياحة للحبشة ١٨٣٨ ان الأحباش المسلمين أقدر على العمل وأسمى مداركا واكثر تهذيبا وعلما من الأحباش المسيحيين .

وأشار « مرجليوث » الى ما ذكره الرحالة ستيفن هيدن بعد زيارته لآسيا من ان أحد المبشرين قضى فى عمله عشر سنوات فلم يستطع تحويل مسلم واحد الى النصرانية وان عشرات من زملائه عجزوا مثله وان دعاة النصرانية قد ينجحون فى البلاد التى لم يكن للمسلمين فيها دولة فى عصر الاسلام . « ا.هـ » .

— ٢ —

واذا كان مرجليوث قد حاول انصاف الاسلام ، فان الأب لامنس اليسوعى (المشرق : م ٢٨ « ١٩٣٠ » ص ٧٣٨) قد ساقه التعصب الى كثير من المغالطات .

وان كان قد ذكر ان انتهاء (الخلافة الاسلامية بعد مرور ست سنوات لم يحدث شيئا من العقبات داخل الاسلام وخارجه وذلك فى قوله :

« وهكذا بعد أن مضى ست سنوات على القرار الكمالى القاضى على الخلافة فى آزار ١٩٢٤ نرى الاسلام يعيش وهو لا

يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا ، وقد ركز (لامنس) هجومه على الاسلام فى :

* تعسر اتفاق السنيين لان بينهم كثيرا من المحافظين التقليديين الذين يحلمون باعادة الخلافة القديمة .

* ان اليقظة القومية قد أحدثت توسعا فى الفوارق بين المسلمين .

* ان الاتراك قد انصرفوا عن الاسلام كلية . وعن ابجدية العربية وكذلك الفرس واتجه المصريون الى الفرعونية .

* ان الاغلبية السنية فى العالم الاسلامى تنطوى على فرق من الأتراك العلمانين ومن المسلمين الشيوعيين المقيمين فى الجمهوريات السوفييتية . والعصريين المبشرين فى مصر والهند .

* الخلاف بين السنة والشيعة .

والواقع ان تقرير (لامنس) للاسلام على هذا النحو انما يقصد فيه تصوير الاسلام بصورة التفسخ والتجزء وانقضاء وحدته وقوته ، وهو غير صحيح فان الخلاف بين المذاهب الاسلامية لم يكن فى الواقع الا خلافا أملته أهواء السياسة ثم حاول الاستعمار اثارته من جديد لاستغلاله فى تمزيق جبهة الاسلام الموحدة .

وان المسلمين قد تنبهوا الى مؤامرات الاستعمار . وتلاقوا على مقاومته ، وعلى الشك فى مقومات الفكر الغربى القائمة على التعصب والهوى ، وآمنوا بضرورة التجمع والاتحاد فى سبيل دفع عدوانه ، وقد حقق الفكر العربى تطورا واضحا فى هذا السبيل حطم كل ما وهمه الأب لامنس ومن وراءه .

وان الفريق الذى أطلق عليه (لامنس) اسم العصريين قد تنبه مبكرا لخدعة الغرب ضد الاسلام ومدى الفارق البعيد بين شعارات الحضارة الغربية البراقة وواقعها الدامى المختفى تحت كلمات الحرية والاخاء والمساواة .

وقد صور (لامنس) نتائج مؤامرة الغزو الثقافى الموجهة ضد الاسلام حتى عام (١٩٣٠) وما حققته فى ميادين التعليم والأزهر وترجمة القرآن وتحرير المرأة فقال :

١ ـ ان التعليم القرآنى هو فى تأخر مستمر ومطرد حتى فى البلاد الاسلامية المستقلة وان ابرز مظهر لذلك هو تطور التعليم الرسمى ولا سيما فى المعاهد العالية والثانوية « فهو يتحرر شيئا فشيئا من تأثير الدين حتى يصبح لا دينيا محضا كما هى الحال فى تركيا » .

٢ ـ ان دعاة التطور العصرى قد مدوا أصابعهم فى داخل الأزهر فاغتنموا حاجته الى الاصلاح وتدخلوا فى ادارة الدروس وتعديل البرامج التى حورت مرات حتى غدا تأثير ذلك المعقل العلمى على شفيرها ، ففقد فى عشرين سنة ثلاثة أخماس طلابه وهكذا القول فى مدرسة الزيتونة فى تونس . فاذا أضفنا الى هذا الروح العصرى السائد فى الجامعة المصرية الجديدة والمستمد مبادئه من النقد الأدبى فهمنا انه أبعد من ان تثبت الشبيبة الاسلامية فى مبادئها الدينية وعقائدها ، وأدركنا الصدمة القومية التى يعانيها اليوم الاسلام التقليدى .

٣ ـ محاولة تطبيق القرآن على ذوق العصر والأفكار العصرية والميول الظاهرة فى العالم الاسلامى للتخلص من الحرمات القرآنية الشديدة فيما يختص بفائدة المال وآراء الائمة الاقدمين فى الادانة والربا .

٤ ـ فى العالم الاسلامى اليوم حركة نسوية ترمى الى نزع الحجاب واعتاق النساء وتحتج على استئثار الرجل وحده بحق الطلاق وعلى انتقاص حق المرأة بالارشاد والشهادة وقد حدثت فى بلاد العرب وسوريا والعراق والجزائر ولا سيما مراكش . وقد عقد مؤتمر للمرأة فى دمشق واحتججن كلهن على الحجاب احتجاجات شديدة ولكن لم تكن منهن من تجرأت فرفعت زاوية من خمارها » .

ولا شك أن ما أورده الأب لامنس فى تقريره بعيـــد فى كثير من تفاصيله عن الحقائق الواقعة ، والواقع ان الاسلام قد استطاع ان يلائم بينه وبين الحضارة فى مختلف فروع الحياة .

ودعا الأب « لامنس » المســلمين ان ينهجوا نهج تركيا فى السير مع التيار العصرى واتخاذ المؤسسات الغربية بكاملها كما فعلت « بقصد محاربة أوربا بسلاحها نفسه » وأشار الى ان الاسلام لا يمكنه الاستمرار فى عزلته والا كان عرضة للصدمة فالسقوط .

والواقع ان الاسلام لم يعتزل الحياة مطلقا . وانه كان قادرا دائما على الالتقاء بالحضارة والتجاوب معها . وأنه حاول دائما ان يلائم بين عقائده وقيمه وبين الحضارة الغربية وانه رفض ان يقبل منها ما يتعارض مع هذه القيم والعقائد .

وقد أعرب الأب لامنس بان عدد المسلمين فى ازدياد متصل وانهم زادوا ٢٠ مليــونا فى أربع ســنوات (١٩٣٠) وان سكان الجــزائر زادوا فى مائة سنة خمسة أضــعاف منذ كانوا مليونا فاصبحوا خمسة ملايين . وعزا زيادة عــدد المسلمين من انهم يقومون بنشر الدعاية لدينهم فيستميلون بعض جيرانهم من الزنوج فى افريقية وأبناء اللفوف السفلى فى الهند وانهم فى سبيل نشر الدعاية الاسلامية اسسوا مدارس خاصــة يربى فيها المرسلون ويدرسون اللاهوت وطر قالتمارين الجدلية والمنــاظرات الدينية وان اشد هذه المدارس نشاطا مدرسة الشيعيين فى لكنهو بالهند ومدارس الأحمدية فى قاديان ولاهور بالهند ومدرسة دار الدعوة فى مصر .

— ٣ —

اما السير ريتشارد وود قنصل انجلترا فى تونس فقد رفع عام ١٨٧٨ تقريرا الى وزير خارجية بريطانيا بعد دراسة شاملة للاسلام والمسلمين خلال فترة عمله لدولته فى دمشق وتونس رد

فيه على جميع ما وجه الغرب من اتهامات للاسلام ، وتصدى لدفع الاتهامات الخاصة بمعاملة أهل الذمة من المسيحيين ورفضه للأخذ بأسباب الحضارة .

١ ــ قال : من أوهام الناس ان الاسلام يمنع مساواة اهل الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم وينبو عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة لانه لا يجيز انتشار المعارف والتحلى بالعلوم .

ورد هذه الأوهام الباطلة . وأكد أن الاسلام يرى ان الأخذ بأسباب التقدم لا يتنافى مع أصول الشرع . واورد الادلة على ان الاسلام يرى أن لأهل الذمة ما للمسلمين وعليهم ما عليهم « اذا ثبت ان غايتهم الوطنية موافقة لغاية المسلمين وانهم مثلهم فى ايثار مصلحة الوطن والخير العام . وان الاسلام يجيز استشارة أهل الذمة فيما يتعلق بالنظامات الدنيوية ولا يمنع استخدام النصارى واليهود واستند فى ذلك على أقوال الماوردى فى كتابه (أدب الدنيا والدين) وأشار الى ان المتأخرين من سلاطين الاسلام استأثروا بالسلطة واستبدوا بالتصرف فخرجوا عن منهج الشرع الاسلامى حتى توهم الاغيار أن سبب هذا الخلل هو ضيق نطاق الشرع الاسلامى وانه لا يضمن لغير المسلمين حقوقهم .

وأكد ان الواقع يخالف هذا ، لأن الاسلام يحتم على الملك وسائر الحكام ان يفعلوا كل ما يدعو الى حسن توزيع العدل والانصاف فى الحكم والتجرد من شوائب الأغراض والحظوظ الشخصية .

٢ ــ وعرض ريتشارد وود للزعم الغربى الذى يزعمه مؤلفو الافرنج من أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التى يقولون انها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون . وقال ان هذا وهم نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن . ويكفى برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام

وعناية علماء العـرب بالمعارف والفنون ودرسـهم كتب الحكماء الأقدمين مثل ارسطو وابقراط واقليدس وبطليموس .

وقال : ان اكبر بواعث سوء الفهم هو انتشار الظن فى أوربا بان الاسلام دين القوة والسيف . وهـذا الظـن مخالف للواقع ولطبيعة الاسلام لما جاء فى القرآن .

١ ــ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين .

٢ ــ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقـاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهـم ان الله يحب المقسطين » .

وأشار الى أن الباحث المدقق فى أسباب الفتن التى سفكت منها الدماء فى المشرق يعلم ان الباعث الوحيد فى حدوثها هو اصبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لابقاء نار الثورة بين ذوى الأحقاد . وقال : من هذا القبيل واقعـة الدروز والموارنة وواقعة الصقالبة والبلغاريين فقد تبين ان الاعتداء انما يبتدىء من جانب النصارى (كان ريتشارد وود صاحب التقرير قنصلا لدولته فى دمشق ١٨٦٠ ابان الفتنة المشهورة) .

وقال انه لا يجوز الظن بأن المسـلمين ينفـرون من مجلس الشورى ويرونه تقليدا أوربيا .

ــ ٤ ــ

واعترف (جورج سارتون) الأستاذ بجامعة هارفارد بأن الاسلام من أصلح النظم الدينية وأجملها على حـد تعبيره « وهو عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الاطلاق ، ولكن المسلمين اليوم كثيرو البعد عن حقيقة ما جاء به الاسلام ، وأورد عبـارة الشيخ محمد عبده « الاسلام محجوب بالمسلمين » وقال : اننا اذا نظرنا

الى الاسلام من خلال أعمال المسلمين لم نر تلك المبادىء جلية واضحة وأكد ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والتعليمية كما كانوا من قبل . ولكن هذا لن يكون الا اذا عادوا أولا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث على الأخذ بها .

واشار (سارتون) الى ان الهزائم السياسية التى منى بها الاسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم بل هى على العكس زادت من غرورهم .

ويتنبأ بأن المسلمين سيعودون الى قيادة العالم مرة أخرى « ذلك ان شعوب الشرق الاسلامى وقد قادت العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانسانى طوال الفى سنة على الأقل قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريبا فليس هناك ما يمنع تلك الشعوب من ان تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب أو البعيد » .

— ٥ —

وعرض المستشرق (هـ . أ. جب) لموقف الاسلام من الحضارة والغزو الثقافى ودعوة التغريب (الهلال — م ٤٧ ص ٨٧٣) فأكد انه زعم ما تسرب الى العالم الاسلامى من اتجاهات أوربا ونزعاتها وما أصاب جماعاته من الانحلال السياسى وما بينها من التفاوت الفكرى ما زالت هناك رابطة عامة وثيقة . نشأت من العقيدة والثقافة الدينية المشتركة وهى تؤلف بين المسلمين فى الشعور والرأى والمصلحة .

واشار جب الى ان المسلمين ما زالوا متمسكين بدينهم متشبثين بعقيدتهم مؤمنين اثبت الايمان بان الاسلام خير الأديان . وان الاسلام لا زال حتى يومنا هذا (١٩٥٠) عقيدة دينية راسخة وقاعدة اجتماعية ثابتة ونظاما خلقيا وطيدا .

وعرض جب لتجربة الاسلام مع الحضارة الحديثة فقال : ان الاسلام استطاع أن يوفق بين الحضارة ونظمه وبذلك مر بأزمة الالحاد . وقال : ان الوحدة الاسلامية حقيقة قائمة تزداد على الأيام قوة وجلاء ودلل على ذلك بأنه ما يكاد يغشى ربعا من ربوع الاسلام أى حادثة خطيرة حتى تذيعها الصحف فى أرجاء آسيا وأفريقية بأسلوب مثير عنيف فلا تلبث أن تتجاوب وتتلاقى .

وقال : ان مقتل الشهيد عمر المختار كان له دوى وان أرجاء العالم الاسلامى من مراكش الى جاوه قد اضطربت له (كانما قد مسها تيار كهربائى كاد يصعقها) وأشار جب الى دور الاسلام اليوم بالنسبة لمادية الحضارة وانهيارها المعنوى فقال : انه ما يزال للاسلام رسالة يؤديها الى الانسانية جمعاء ، فهو يقف فى وسط الشرق والغرب . وقد اثبت أكثر مما أثبت أى نظام سواء مقدرته على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة « واذا لم يكن بد من وسيط يسوى ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام فهذا الوسيط هو الاسلام » ولم يفت جب ان يشير الى ان الاسلام من حيث هو « عقيدة دينية » لم يفقد الا قليلا بتأثير الغزو الغربى — ولكنه تنحى عن عرشه من حيث هو قاعدة اجتماعية تسود الحياة وتوجهها ، وذلك بعد ان قامت الى جانبه قوى تحكم فى بعض الأحيان بما يناقض تعاليم الاسلام وان الاسلام كله الى عهد قريب هو كل شىء فى حياة المسلم . وكانت حياته الاجتماعية واتجاهاته الفكرية مستمدة من الدين ومقترنة بالاسلام وأشار الى ما بذله محمد عبده وتلاميذه من الجهود التى عملت على التوفيق بين تعاليم الاسلام ونظمه وبين مطالب الحياة الحديثة وأساليبها » . اهـ

— ٧ —

وقد وجد الاسلام من كتاب الغرب بعض المنصفين الى جانب الكثرة الغالبة من خصومه المتعصبين من أمثال : هنرى دى كاسترى

وسيديووجوستاف لوبون واسحق بطلر وواشنطن ارفنج ولـو روب استوارد وتوماس كارليل وولز ٠

وفى مثل قول اللورد هدلى : الذى يرى انه لو ندبت لجنـة من الانجليز الاكفـاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العـالم كله لأجمعوا على اختيار الاسلام ٠

أو قول الدكتور كونسيتان سنوك هيرجرونحيه « البـلاغ الاسبوعى ٢٧ نوفمبر ١٩٢٩) بان الاسلام لايقاوم النصرانية ، لان الاسلام فى المستقبل سيشكل نفسه حسب حاجات العصـر الحديث ٠ ولن يدع النصرانية تغلبه وتسلبه أبناءه الذين كسبهم من مئات الاجيال ٠ وقد طبعوا بطابعه وصاروا جزءا منه وهم يمثلونه فى سائر بقاع الارض ٠

ويؤكد ان المسلمين سيستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من الثقافة والمدنية الغربيين ٠ ويقول انه فى الجامعات الكبرى نجـد الكثيرين من المسلمين ولكن مجرى عقواهم لايزال اسلاميا ٠ وقال انه كان يعرف الطالب المسلم من غير المسلم فى جامعته بمجـرد الاطلاع على مبحثه الذى كتبه . اذ أن فى المسلمين ميلا قـويا الى التمسك بدين ابائهم وتطبيقه على الحاجات المدنية ٠

ويشير المستشرق لوسين يوفا (الزهراء : شعبان ١٣٤٣ ص ٤٩٦ م ١) الى ان الاسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمـام الاتفاق ٠ وان التقدم الذى نشاهده فى الممالك الاسلامية منـذ قرن دليل على ان الاسلام يسير مع المدنية جنبا الى جنب وانالاسلام سيظل موجودا دائما ٠

واشار الى انحطاط العالمالاسلامى فقال : ليس الذنب فىاكثرها على المسلمين وانما هو نتيجة الحكم المطلق ، وجهـل الحكومات الذى أدى الى انتشار الجهل واضطرار دول الاسـلام الى خوض حروب كثيرة ٠ والعجز عن توزيع العدل وسوء خطة الغربيين فى معاملة الشرقيين ٠

الدين في نظر العلم

وركز دعاة الغزو الثقافى والتغريب حملاتهم على جوانب متعددة فى الدين عامة والاسلام بصفة خاصة تنصب على أصول الاسلام ٠ وقد وجه (هانوتو) الحملة على القدر والتوحيد ٠ وهاجم مستر سكوت الاسلام وادعى انه دين حرب دائم مع غير المؤمنين به — وقد كان كتابه عن الاسلام الملىء بالمطاعن مما يدرس فى مدارس مصر (١٩١٥ وما بعدها)

وركز (ارنست رينان) هجومه على التناقض بين الدين والعلم محاولا اثبات انهما عدوان لدودان ٠ وقد حاول علماء (المادية) فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أن يؤكدوا أن عهد (الدين) قد انقضى ٠ وان بقاءه على الارض مرتبط ببقاء السذاجة العامية ٠ وقد كذبت الأحداث ادعاءهم ٠ فان العلماء لم يلبثوا أن توصلوا الى وجود عالم روحانى وراء هذا العالم لا يمكن انكاره ، وأعلن ذلك فى المجتمع العلمى لما وراء علم النفس ١٩٢٠ ومؤتمر الاساقفة الانجيليكان فى لامبيت وانشىء كرسى لهذا العلم فى كل من جامعتى كمبردج واكسفورد ٠

وكف العلم عن غروره فى نهاية القرن التاسع عشر واعتراف بأن لابد للمعرفة من وسائل اخرى غير وسائل الحس ووسائل التفكير وانه لابد من (البصيرة)

واستأنف العلماء مراجعة تصوف الهند واليونانيين والعبرانيين والمسيحيين المليين لبحث أساس روحى للحضارة ٠ وأعلن (أوجست

كونت) الديانة الوضعية وبذلك تحطمت نظرية (نهاية الدين) التى أعلنها دعاة المادية وكانوا يعتقدون أن العلم الحديث سيحل لهم كل شيء ويكشف لهم عن كل شيء

وجاء علماء يقولون ان مذهب (دارون) فرض وليس حقيقة غير قابلة للنقض · وان الاساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية قد انهار · وان العلم ليس كل شيء فى الوجود · وان الدين وسيلة للسمو بالانسان الى مرتبة أرفع (الدكتور محمد خليل عبد الخالق) ــ الهلال م ٣٩ ص ١١٣٧) وأصبح العلم يسلم بوجود ما ليس قائما أمام الحس ·· وبدأ عصر اعتقاد ويقين بالقوى الخفية ·· واتسع التحقيق العلمى للمجهول وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر · وان الكون ليس حقيقة فى ذاته وانما هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة (دكتور على توفيق شوشة ــ نفس المصدر)

حملة الالحاد

ركز الاستعمار حملة ضخمة من الغزو الثقافى على « الدين » فى العالم العربى · وهدفها مهاجمة جميع الأديان وزعزعة العقائد وخلق تيار عميق المجرى من « الالحاد » وكانت أوربا قد واجهت معركة ضخمة بين الالحاد والدين فى القرن السادس عشر حين وقف رجال الكنيسة أمام النهضة محاولين مقاومة كشوفها واتهام أعلامها بالكفر والالحاد · وقد نشأ الالحاد نتيجة لهذا الصراع الذى استعمل فيه رجال الدين سلطانهم فأسرفوا فى البطش بخصومهم عن طريق محاكم التفتيش ثم انتصر العلم واعلن عقوقه ومهاجمته للدين عامة ·· وساعده على ذلك ظهور المذاهب المادية المنكرة لوجود الخالق والأديان والكتب المقدسة والأنبياء ·

وقد حرصت علوم الطبيعة والفلسفة والكيمياء والجغرافيا والفلسفة أن تنقض الدين وتناقضه فى كل قضاياها ٠

وبلغ الالحاد غايته فى منتصف القرن التاسع عشر ثم عاد ينحدر مرة أخرى بعد أن أثبتت الكشوف وجود الروح ٠ وعادت الفطرة الانسانية الى خطها الأساسى وقد نقل الاستعمار ميدان المعركة الى العالم العربى فى حملة الغزو الثقافى ومن المسيحية الى الاسلام مع الفارق البعيد بينهما ٠

فالاسلام لم يقاوم الحضارة ولم يعارضها كما عارضها الاكليروس ، بل التقى بها دائما ٠ ولم يتعارض الاسلام مع العلم كما تعارضت المسيحية ٠

ولذلك فان حملة الالحاد قد حاولت أن تتخذ حججا أخرى لتعميق مجرى الالحاد فى العالم العربى ٠

وكانت حملة الالحاد التى حمل لواءها دعاة التغريب فى بلادنا هو أن الدين يقيم حياتنا على أساس من التواكل وأن المتدين يبدأ بحثه من الوجود حوله فينتهى للخالق ومنه للطبيعة . بينما الغربى يبدأ من العالم المنظور لينتهى لعالم الغيب . وهذا التباين فى منزع التفكير ذهب بالمتدينين الى الاعتقاد بأن العالم حادث ، وأن الخالق مطلق التصرف فى الكون منفصل عنه ومدبر له . وانه السبب لكل ما يحدث والعلة الأولى والاخيرة لكل ما يكون وما سيكون .

وان الفرد المتدين فى الشرق خاضع لارادة عليا هى ارادة الخالق الحرة يقضى فيكون ويقدر فيحدث ٠ أما الغربى الملحد فانه يتبع فى تصرفاته وسلوكه نواميس الحياة ويخضع لها ٠

وان المتدين يستسلم للغيب استسلاما محضا ، بينما فى الغرب يناضل الملحد قوى الغيب « اسماعيل أدهم ـ الرسالة » سبتمبر

١٩٣٨ » وحمل دعاة الالحاد لواء الدعوة الى القول بأن الاسلام هو سبب تأخر الشرق • وأن الدين يضع القيود ضـــد الحريات فى الأدب والأخلاق ولذلك يتأخر الفن والأدب فى ظل الدين وأباح دعاة الالحاد نقد القرآن والنظر فى آياته وتبين مافيها من فروق وصفوها بالقوة والضعف •

الاديان الجديدة : البابية والبهائية والقاديانية

وقد حارب الغرب الاســـلام بالدعوة الى أديان جديدة كالبابية والبهائية والقاديانية ، ولا شك أن ظهور الـــدعوات الجديدة التى تحمل أسماء الأديان والتركيز عليها واهتمام الصـــحف والمجلات بالدعوة لها واذاعـــة مبادئها والحديث عنها انما كان عملا واضح الدلالة والأثر فى حرب الاسلام ومحاولة القضاء عليه وقد أكـــد ذلك الدكتور تشارلس أدمس حين قال أن « البابية » كانت وسيلة للاستغلال من الاسلام للنصرانية •

وقد حرص دعاة التغريب على حمل لواء الدعوة الى هذه الأديان وداومت الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة والعصور والأهرام والمقطم نشر أبحاث مطولة عن البابية والبهائية •

وقد كان موت زعيم البهائية . عباس عبد البهـاء « نوفمبـر ١٩٢١ » مناسبة لحملة طويلة عريضة • فقد أشارت الصحف أنه كان لنعيه وقع عظيم فى نفوس البهائيين فى أقطار المعمورة • وقد نشرت الهـلال التى أوردت الخبر تفاصيل كاملـــة عن مبـــادىء المذهب البهائى وأهمها أن أساس الأديان واحد وأن الطقوس التى دخلت عليها أدت الى التفرق والانقسام •

وقالت ان البهاء رمى الى تأسيس دين عملى نظر فيه الى تقويم الأخلاق ووجه دعوته الى العالم كله وليس الى الشيعة فقط • فكتب

الى ملوك الأرض وقالت ان البهـــائية فرع من البـابية التى ظهرت فى السبعينات من القرن الماضى عن طريق الميرزا على محمـد الباب « المتوفى ١٨٥٢ » وأن البـــاب رمى الى اصلاح الـدين الاسلامى ·

وقد أشار سلامة موسى فى المجلة الجديدة « فبـراير ١٩٣٠ » أن البهائية دين جديد يوافق النزعات الجديدة · وقالت أن هـذا الدين يجب أن يلقى تأييدا فى مصر حتى ينتشر بين الطبقات التى لا تجد من الأديان السائدة أو من العلوم والآداب ما يقنع نفوسها وقال : ان فى انتشار البهائية كبت للتعصب ودعوة الى أخاء البشر · وأن تنزل على حاجة العصر الحاضر الذى يكره فيه تعـدد الاديان . وماتجلت فى مخالفة بعضها للبعض من تحزبات وتعصب ·

ونشر « عمر عنايت » فى مجلة العصـــور أبحاثا متصلة عن البابية والبهائية وتعـاليم البهائية وبشر عبد الجليل سعد الناس بالدين الجديد فى مجلة العصور (نوفمبر ١٩٢٩) وقال (قل هو نبأ عظيم) وطالب الناس بألا يتعجلوا الحكم عليه فانه سيتم به اتحاد الشرق والغرب والأديان والأجناس وبه تزول الحروب ·

وترجمت العصور كتاب المبشر ج · سلمنت عن « بهـاء الله والعصر الحديث » ونشر عباس العقاد فى الهـلال بحثـا بعنوان ساعة مع عبد البهاء « يناير ١٩٣٠ » ونشرت الأهـرام فى ٥ـ٥ و ١١ـ٥ـ١٩٣١ بحثا مطولا عن هيكل البهائية فى نيويورك وانتشار هذه الديانة التى « تدعو الى توحيد الأديان واللغة وترك العصبيات الدينية والجنسية ونبذ الحروب ·

واهتمت دوائر الغـــزو الثقافى والصـحف بالدعوة الأحمدية « الأهرام ٢٤ـ٩ـ١٩٣٣ » التى قام بها « غلام أحمد القـاديانى » مسيح الهند المولود بقاديان بالبنجاب والذى ادعى أنه المهـدى

المنتظر الذى يؤمن به المسلمون وينتظرونه وتتلخص عقيـدتهم فى موت السيد المسيح ودفنه وعـــدم انقـــطاع الوحى والنبوة غير التشريعية وعدم النسخ فى القرآن ٠

وقد هاجمهم رشيد رضا « الاهرام ٢٧-٩-١٩٣٣ » وقال ان دعوى غلام أحمد بأنه المهدى المنتظر دعـوى باطلة ٠ وأن القاديانى ادعى أولا أنه المهدى ثم ادعى أنه المسيح الموعود به وأنه يوحى اليه وجاء بسخافات من النثر والشعر وزعم أنها تنزل عليه ٠ وحرف كثيرا من آيات القرآن والأحاديث الواردة ٠

وأشار الى أنه اعتمد فى دعواه ببقـــاء الوحى والنبوة غيـــر التشريعية على أقوال بعض الصوفية كعبد الكريم الجبلى فى كتابه الانسان الكامل وابن عربى فى الفتوحات المكية والشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر ٠

حركة المقاومة ورد الفعل

ولم يقف الفكر العربى مكتوفا أمام هذه الحملات وانما واجهها بقوة ودحض أكاذيبهـــا وكشف عن خداعها وتضليلها وتعصبها ٠ وكشف الغشاء عن الاباطيل التى برع الغزو الثقافى فى حمل لوائهـا البراق ٠ والتى خدعت الكثير من دعاة التغريب فى العالم العربى فصدقوا شعارات الفـكر الغربى وكلماته ذات الرنين وخـــدعهم المبشرون الذين تلقوا عليهم العـــلم فى جامعات أوربا ٠ وفرنســا بالذات . أمثال ماسنيون ودوركايم ومرسيه ومرجليـوث وليفى بريل وهم أساتذة منصور فهمى وطه حسين ومحمود عزمى وزكى مبـارك ٠

والعجيب أن كتاب أوربا قد انقسموا ازاء العقائد الشرقيـــة والاسلام واللغة العربية وتاريخ العرب وأمجادهم قســمين ، وأن

مفكرين ذوى قدر وصوت عال قد أنصفوا العـــرب ومع ذلك فان نظريات المبشرين والمستشرقين كانت دائمـــا لها الغلب ، وكانت هى التى تتردد فى صحف مصر والعالم العربى - لا على أنها نظريات قابلة للنقض ، ولكن على أنها حقائق ثابتـــة ، ومما يذكر فى هذا الصدد أن « رينان » عنـــدما عرض آراءه عن العرب والسامية وراجعه فيها « جمال الدين الأفغانى » لم يجد أمامه الا أن يعلـــن انه سيعاود النظر فى مراجعتها على ضـــوء ما أورده جمال الدين الأفغانى فى الرد عليه ، ومع ذلك فان دعاة التغريب حملـــوا هذه النظريات فى الهجوم على الاسلام والأمة العربية واللغـــة العربية كحقائق تفرض فرضا ٠

وقد واجه الفكر العربى فى قوة وصراحة ووضوح وعلى نفس المنهج العقلى والمذهب الغربى فى البحث كل مـــا عرضه المبشـــرون والمستشرقون وخصوم العرب والاسلام وكشف زيفه . وابان أن هذه الحملة لم يقصد بها الا توهين عـــرا الاســـلام وتشـــويه صـــورته وصرف أهله عنه ، وأشاروا الى صيحة « فلادستون » رئيس وزراء بريطانيا فى عهد الملكة فيكتوريا فى مجلس العموم البريطانى وهو يمسك بيده « القرآن الكريم » ويقول « انه مادام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم » ٠

وقد اعتبرت هـــذه الصيحة قاعدة للحملة التغريبية الضخمة المتصلة على الاسلام وعلى ضوئها وضع الغرب سياسته فى التعليم والثقافة محاولا الادعاء بأن الاســـلام ليس فى حقيقتـــه الا عبادات وصلوات وطرقا صوفية وأن القرآن يقرأ للبركة مع الاغضاء المتعمد والتجاهل الشامل للاسلام كنظام اقتصادى واجتماعى ونظام للحكم ونظام للتربية والتعليم ٠

واستتبع هذا العمل ، فصل العلم عن الدين وفصـــل الدين عن الدولة ٠

وقد عمل الفكر العـــربى جاهدا على رد كل الشبهات التى أثارها المبشرون والمستشرقون ودعاة التغريب من أن كلمة الاسلام معناها الخضوع والاستسلام ، أو أن الاسلام تاريخيا فـــرع من الديانات الاسرائيلية والمسيحية (فيليب حتى «ك» الاســــلام فى نظر الغرب) وكشف عن أن الاسلام لا يعنى الاستسلام وأنه يختلف عن كلتا الديانتين ٠

جوهر الاســـلام

وكشف الفكر العربى عن جوهر الاسلام فى أنه عقيدة ونظام ٠ وان مبادىء الاسلام وتعاليمه صالحة للمجتمع على اختلاف الزمان والمكان ٠ وأن أركان العقيدة الاسلامية بسيطة قوامها التوحيد ٠ وقد أقر الاسلام حقوق الحرية والاخاء والمساواة بين البشر وألغى العصبية وفوارق الأجناس والألوان والـــدماء ٠ وجعل أساس التفاضل بالعمل وحرم العصـــبية القبلية ودعا الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنـــكر ونشر المحبة بين الناس وحمل لواء الجـهاد فى سبيل الدفاع عن العرض والأرض والوطن ونهى عن عبادة غير الله ٠

وتشمل الشريعة الاسلامية كافة التكليفات الشرعية العملية ٠ وتنظم العلاقات بين الناس فى الأسرة والمجتمع بما يحقق مقام مدينة فاضلة تقوم فيها العلاقات على دعائم ثابتة ودعا الى الحج كمؤتمـر اسلامى عام ٠

وقد نظم الاســـلام المجتمـــع على أساس الخلق والتعاون والتكافل ٠

وأقام الأسرة على أساس المودة ونظم العلاقات بين الناس وفرض نظام الشورى فى الحكم وأعلن احترامه للكرامة الانسانية والعدالة وعدم التفريق فى القضاء بين الغنى والفقير أو الأمير والسوقة . وأعطى توزيع الأعمال بمقدار الكفاية . وعالج الفقر بنظام العدالة الاجتماعية . وجعل للفقير فى مال الغنى حقا معلوما هو الزكاة تجمعه الدولة . وأوجب على ولى الأمر أن ينفق على الفقير العاجز . وللقاضى أن يحكم له بما يكفيه من بيت مال المسلمين . وأوجب على أهل كل قرية ان يقوموا بسد حاجة فقرائها ان لم تكف الزكاة وأعطى المرأة حقها ومنحها حرية الارادة فى البيع والزواج والشراء وحث على طلب العلم وأقام الحكم العقلى فيه على أساس البرهان « قل هاتوا برهانكم » .

وقام الاسلام على قاعدة : لا ضرر ولا ضرار وعلى سد الذرائع واعطاء الوسائل واحكام المقاصد والغايات فكل ما أفضى الى مباح فهو مباح . وكما أباح اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به ، وقرر تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ودعا الى المساواة بين المسلمين فى الأحكام وكذلك بينهم وبين من له ذمة وعهد ، فان لهم مالهم وعليهم ما عليهم . وعمل على تقدير كثير من الأحكام بما تعارف به الناس وأعلن أن من اجتهد وأخطأ فله أجر واحد ومن اجتهد وأصاب فله أجران .

فتح باب الاجتهاد :

وكان « الاسلام » واسع الأفق فى لقاء الحضارة الغربية الحديثة وقد حرر الفكر العربى نفسه بفتح باب الاجتهاد قبل أن تصل طلائع الغزو الغربى فان علماء القرن الثامن عشر قد دعوا الى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقا فترة طويلة . وأعادوا تفسير قوانين

الاسلام وكشفوا عن وجه الاسلام الحقيقى بعد أن رفعوا الغشاء الذى خلفه الجمود والتقليد فى ظل الدولة العثمانية ·

وكانت الحركات الوهابية والسنوسية والمهدوية · وهى حركات منفصلة قامت فى الحجاز وليبيا والسودان علامات على وضوح مفاهيم الاسلام الحقيقية من تحرير الفكر وتحرير الوطن فى نفوس دعاتها · قد عملت هذه الدعوات على التحرر من قيد التقليد والعودة بالاسلام الى منابعه الأولى وفى نفس الوقت قاومت الاستعمار التركى والغربى ·

كما توافرت فى « الاسلام » خلال معركة المقاومة التى شنها على الغزو الثقافى والتدخل الأجنبى مرونة واضحة فى تقبل الحضارة ·· وتمكن المجتمع الاسلامى من التطور والعمل للملاءمة بين الحضارة وبين أسس القيم الروحية والفكرية العربية التى كانت أساسا ضروريا لبناء المجتمع الجديد ·

الاسلام فى معركة المقاومة

بين التجديد والاجتهاد والاصلاح

لقد اتجهت أفكار المصلحين ودعاة الاجتهاد والتجديد من قادة الفكر العربى الى بحث قضايا الاسلام فى مجال التطور ومواجهة الحضارة والاستعمار والغزو الثقافى وتناولت هذه القضايا بحث :

- لماذا تأخر المسلمون ؟
- هل يستطيع الاسلام تقبل الحضارة ؟
- ماهو الحد الذى يمكن اقتباسه من الحضارة ؟
- ما هو سبب الضعف هل الاسلام أم المسلمون ؟

وقد كشف الباحثون عن أن أكبر عوامل تقهقر المسلمين هى :

أ ـ فساد أخلاق الأمراء والحكام الذين أعطوا أنفسهم حرية التصرف على نحو استبدادى لا يراجع على أساس مفاهيم مغلوطة بأن هذه الشعوب ليست الا خدما لهم . وقد بلغوا فى هذا غاية الظلم والعنف فكانوا يقضون على أى رجل حر يحاول أن يردهم عن استبدادهم أو يكشف عنه ٠

ب ـ ضعف العلماء وتزلفهم للأمراء ومحاولة تبرير تصرفاتهم والفتوى بقتل كل رأى حر بحجة أنه خرج عن الجماعة ٠

جـ ـ دعاة التغريب الذين يهاجمون كل قديم بما فيه الدين واللغة والتراث ٠

د ـ الجامدون من رجال الدين الذين قاوموا التطور والتجديد على نحو من الجهل والتعصب ٠ والنظر الى الاسلام على أنه دين وعبادة فقط ٠ وليس نظاما ومجتمعا وحضارة « شكيب أرسلان « ك » لماذا تأخر المسلمون) ٠

***

٢ ـ وكشف الفكر العربى عن أن فى نصوص الاسلام وتاريخه أدلة ـ أكيدة ـ على أنه « دين » يستطيع أهله أن يجدوا فيه كل مايتفق مع مظاهر الحضارة والمسايرة للزمن وتطبيق الاحكام مع ملاءمات الأحوال والظروف مع المحافظة على روح الدين وأنه ليس فى الاسلام مايمنعنا من أن نأخذ من حضارة الغرب ، ماينفعنا ويلقح حياتنا باللقاح المجدد ٠ وأن الوسيلة الى ذلك هو ظهور الرجال الذين يفهمون روح الدين بالعقل اليقظ العارف حاجات العصر وتيارات الحضارة (محمود الشرقاوى) وأيد الشيخ محمد مصطفى المراغى هذا الاتجاه حين أكد أن القرآن الكريم حث المسلمين حثا شديدا على طلب العلم وتدبر ما فى الكون ودراسة جميع المعارف

والتأمل والبحث فى الخليقة ــ وقال : ان للمسلمين أن يأخذوا جميع ما فى الحضارة الحديثة من حسن لا يتنافى مع دينهم وأن يقتبسوا الرقى فى جميع النواحى العلمية ، والمادية وقد أكد التاريخ الاسلامى هذا المعنى بأن الاسلام لم يكن يوما ما عدوا للرقى وخصما للعلم وانا لا أعتقد أن هناك قاعدة علمية صحيحة تنافى الدين الاسلامى .ا.هـ .

٣ ــ رسم المفكرون منهج الرباط بين الاسلام والحضارة والنظر الى الاسلام من الناحية العلمية : قال محمد فريد وجدى ان هذا أصبح من أشد الضرورات الاجتماعية ــ نظرا لتمرد العقول على ما لا يقوم على أسباب العلم الراهن ولا يوفى بشروط الفلسفة الوضعية .

٤ ــ كشف المفكرون المسلمون عن ان القصور والنقص انما سببه المسلمون لا ــ الاسلام ، وان مبادىء الاسلام كانت على الزمن قادرة على مواجهة التطور والحضارة وان الضعف الذى اصاب الامة كان مصدره العوامل المختلفة التى تتصل بالجمود واقفال باب الاجتهاد وغلبة البدع والقشور والتوكل وخطأ فهم عقيدة القضاء والقدر وقيام السلبية والفردية والترف والتخلف عن الزمن نتيجة لغلبة الجهل والتوقف عن الكفاح وحماية الثغور وسيطرة الامراء المستبدين والعلماء الجامدين والاستهانة بالعدو .

ولقد استغل الاستعمار بعض طوائف المسلمين كرجال الطرق الذين آزروا السلطات الاستعمارية فى شمال افريقية والسودان .

اما الاسلام فى ذاته وجوهره فلم يكن عاملا من عوامل الضعف والقصور .

٥ ــ عارض المفكرون العرب فيما وصف به التفكير العربى الدينى من أنه تفكير تجريدى . واستشهدوا فى ذلك بالاسلام وقالوا ان هذا الفكر رهن بالقواعد المرسومة شبيه بهندسة البناء العربية لا

تحتوى صورة من صور الحياة المماثلة فى بنية الانسان وملامح وجهه كما وصفه (روم لاندو) فى محاورة بينه وبين لطفى السيد (٢١ مارس ١٩٣٨ ــ الرسالة) وقد رفض لطفى السيد هذا الرأى وقال له: « ان الفكر العربى أشد ايغالا فى الواقعيات من الفكر الأوربى وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعته التجريدية تتناول شئون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والاخلاق كما هو الحال فى الشريعة المسيحية ٠ وهى تقضى بالوصايا فى أمور المعيشة والزواج والميراث واحسب اننا اقرب الى معرفة الحقيقة حين ندرس (المخيلة المسيحية) بتصور السماء والفردوس اما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ٠ انها دار حقيقية فيها اللبن والعسل والمسجد وفيها الاشجار والازهار والحور العين (أ٠هـ)

ترجمة معانى القرآن

كانت فكرة (ترجمة معانى القرآن) التى حمل لواءها محمد مصطفى المراغى شيخ الازهر منذ عام ١٩٢٩ من أعمال مقاومة الغزو الثقافى والتغريب ٠ ذلك أن ـ الغربيين كانوا قد ترجموا القرآن منذ منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٧) عن طريق المبشرين وتوالت الترجمات التى بلغت ٣٤ ترجمة ، وهى ترجمات مغلوطة محرفة ناقصة فى بعضها ومزيدة فى الاخرى ٠ وقد انتشرت هذه الترجمات فى مختلف انحاء العالم على انها ترجمة حقيقية للاسلام ، وقد استعملها بعض من لا يعرفون اللغة العربية ٠ ولما كان فى ذلك من الخطر ما فيه على مفاهيم القرآن وبلاغته فقد كان لابد من القيام بعمل من هذا النوع لترجمة « معانى القرآن » ترجمة صادقة .

وقد جرت معارك فكرية طويلة ١٩٣٢ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ حول ما اذا كانت الترجمة للقرآن هى ترجمة كاملة أم ترجمة معانى

القرآن ، وقد ذكرت مشيخة الأزهر « ١٦ـ٤ـ١٩٣٦ » أن تراجم القرآن الى مختلف اللغات الاعجمية قد شاع في هذا العصر وان بها اخطاء وأغلاطا شائنة تتنافى مع ماجاء فى الدين الاسلامى الحنيف وهى من أجل ذلك قد انشأت قسما خاصا من مجلة نور السلام ــ واستقدمت الاخصائيين فى اللغات الذين ناطت بهم ترجمة تفسير بعض الآيات واخذت من تفسير الالوسى والبيضاوى وغيرهما من من التفاسير ٠

وأشارت الى أن المراد من ترجمة معانى القرآن الكريم هو(تبسيط هذه المعانى تبسيطا محكما وتفسيرها تفسيرا دقيقا على ان تترجم المعانى بعد ذلك ٠ وقالت أن القرآن لفظ عربى معجز وله معنى ٠أما نظمه العربى المعجز فلا سبيل الى نقل خصائصه لأن هذا مستحيل استحالة قطعية ٠

ودعا محمد فريد وجدى الى ترجمة القرآن ترجمة صحيحة كاملة وذلك حتى يكون بنجوة من تحريف المحرفين وقال ان هذا العمل خير من أن يترك للمترجمين من متعصبة الأمم يحرفونه ويشوهون معانيه ٠

ونعى فريد وجدى على اصرار بعض العلماء على حبس الاسلام فى دائرة العربية التى لا يحسن فهمها غير أهلها وتجريده من الأسلحة العالمية وهى اللغات الحية للدفاع عن نفسه ، وقال ان وضع القيود غير المعقولة فى مسألة نقله يقضى عليه بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى اعقابنا قرونا طويلة ٠ ومعناه صده عن الجولان فى الدورة الفكرية العالمية مع غيره من كتب الاديان واسفار المذاهب٠

وقال : ان الاكتفاء بترجمة تفسير لا يؤدى الغرض المطلوب من نشره ، لأن ــ المفكرين فى العالم يحبون أن يتأملوه عاريا من زخرف التفاسير والشروح والوان الآراء والافهام لمعرفة قيمته الذاتية ٠

وقال ان كل مايخشى منه ان يوكل أمر البت في هذا الشأن لمن لا يعرفون لغات أجنبية فيخيل اليهم أنها لغات بربرية تخلو من جميع الزخارف اللفظية والمعنوية التى توجد فى العربية ، وقال ان تعطيل القرآن عن الترجمة الحرفية والزج به فى معترك الافهام الى اليوم قضى عليه بأن لايكسب أنصارا من الامم الغربية فصار قاصرا على الامم الشرقية التى رضيت ان يكون حظها من دينها كحظ الببغاء

واشار الى حركة الاتراك التى اثرت فى العالم العربى اعظم تأثير وابلغه وزاد اعجابه بها عند اقدامهم على كسر هذا السياج الفولاذى الذى وضعه المتأخرون أمام ترجمة القرآن مع جوازه فى اقدم المذاهب الفقهية (٧ــ٧ــ١٩٣٢ الاهرام)

وقد عارض ترجمة معانى القرآن كثيرون فى مقدمتهم الشيخ محمد سليمان وكيل المحكمة العليا الشرعية الذى وصفها بأن وراءها غرضا استعماريا هو القضاء على القرآن ــ تمهيدا للقضاء على الاسلام وتابعه محمد الههياوى وعارضها كذلك الشيخ الظواهرى وكان الخلاف سياسيا فى الاغلب .

ومما يذكر ان اول ترجمة للقرآن كانت باشارة بطرس فيزابلس رئيس كنيسة كلنية وقد تمت ١١٤٣ م وظلت مختفية نيفا واربعمائة سنة حتى طبعت ١٥٤٣ ونقلت بعد ذلك الى الايطالية والهولندية . وترجم القرآن الى الفرنسية وطبع ١٦٤٧ ولم تكن ترجمة صحيحة وبها نقص وزيادة ، وترجم الى اللغة الالمانية ١٦١٦ والهولندية ١٦٤١ والروسية ١٧٧٦ والايطالية ١٥٤٧ والانجليزية ١٧٣٤ والعبرانية ١٦٣٤ ــ والآرامية ١٧٩٠ والفارسية ١٨٢١ والجاوية ١٩١٣ والسنغالية ١٩٠٨ والتركية ١٩١٣

وقد اعلنت ترجمات متعددة للمستشرقين والمبشرين من الاوربيين وكلها ترجمات تفسيرية وليست كاملة .

ومما يذكر ايضا ان القرآن ترجم فى عهد هشام بن عبد الملك الى اللغة السريانية (لغة الحضارة فى ذلك العصر) ويوجد فى متحف لندن المجموعة الخطية التى وهبها ادوار كاريورى فى ٥٠ الف مجلد وتشمل ترجمة قديمة للقرآن منذ ٦٩٠ م وبها آيات كاملة ليست من القران ٠

الخلافات بين المذاهب الاسلامية

كان الخلاف بين المذاهب الاسلامية من العوامل التى استغلها الاستعمار فى معركة الغزو الثقافى والتغريب ٠ فقد حرص على ان يثير الخلافات بين هذه الطوائف حتى يؤكد الفروق ويعمق التفرقة وقد كانت ابرز هذه الخلافات التى أثارها الاستعمار :

- بين السنة والشيعة ٠
- بين السنة والمتصوفة ٠
- بين السنة والوهابية ٠

بين السنة والشيعة

حرص المبشرون والمستشرقون على دراسة المذاهب المختلفة فى الاسلام فيما سوى مذهب السنة ، والاهتمام بها والتوسع فيها وكانت الشيعة من أهم هذه الابحاث . وبالرغم من أن الشيعة الاثنى عشرية والزيدية هى وحدها الموجودة الان فى العالم العربى ، فان هؤلاء الكتاب بما يحملون من روح الحقد والرغبة فى بلبلة الافكار وتصوير المذاهب بصورة مثيرة ، قد خلطوا بين هذين المذهبين المعتدلين وبين مذاهب الاغاخانية والحلول بقصد اثارة خلافات قديمة بائدة ٠ وهم

يهدفون من نشر مثل هذه الابحاث في العالم العربي اثارة السنيين على اخوانهم الشيعة دون أن يكون هناك مايكشف بعض المغالطات والاخطاء المتعمدة ٠

وقد حرص الاستعمار في معركة الغزو الثقافي والتغريب الى احتضان كل الفرق كالأحمدية والبابية واستغلالها في اثارة الفتنة بين المسلمين والتشكيك في المعتقدات الدينية وتوسيع دائرة الخلاف ٠ وذلك رغبة في تمزيق الوحدة الفكرية والدينية كجزء من خطة التجزئة الشاملة للفكر والوطنية واللغة والدين ٠

وقد ثارت أسباب هذا الخلاف عدة مرات نتيجة لكتابات مختلفة كتبت من جانب واحد وحجب الجانب الاخر ٠ وقد جرت الدعوة في هذه المناسبات الى العمل على تقريب وجهات النظر بين السنة والشيعة في العراق وسوريا ٠ وحرص الازهر على ان يشترك في بحث منشأ الخلاف والطرق العلمية لازالته ٠ وكتب محمد رضا المظفر من علماء النجف الاشرف « الرسالة م ٣ص ١٦١٢) يقول نحن نفهم من كلمة (الشيعة) اذا قلناها الامامية الاثنى عشرية خاصة ، لانهم الاكثرية من بين فرق شتى وذوو المؤلفات والمعارك التي يقال عنها مؤلفات الشيعة ومعارفها ، ولأنهم اليوم شيعة العراق وسوريا وايران والامارات العربية على الخليج الفارسي والهند وافغانستان ٠ وهناك الزيدية في اليمن والبهرة في الهند ٠ اما الفرق الاخرى فقد أصبحت في خبر كان ولا يعرف لها أثر .

وقال : ان الخطأ هو الصاق عقائد تلك الفرق البائدة بعامة الشيعة (الشيعة بالمعنى المفهوم) وهذا مايثير غضب الشيعة الاحياء من غير حاجة تدعو ولا ضرورة ٠

وأشار الى أن الفرق التي وصفت بالمرجئة والغالية والمجسمة والسبكية وغيرها مما أورده الشهرستاني في كتابه الملل والنحل قد انتهت وقال : ان كل ماعند الشيعة انها تتمسك

بعترة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولكن ليس كعقيدة موالاة فحسب ٠ وانما تعنى من التمسك بهم ان تأخذ باقوالهم فى احكام الفقه وترجع اليهم فى دين الاسلام وتدلل على ان ما جاء به النبى ورثوه عنه وعلم مكنوز لديهم وهم أمناء عليه معصومون ٠

وأشار الى ان هذه الخلافات قد بذرتها السياسة لاغراضها فى زمن بعيد لسنا ابناءه فلا يصطدم بآراء افراد لانعرف عنهم كثيرا ٠

وقد أشار محب الدين الخطيب الى ان الخلاف بين اهل السنة والشيعة هو خلاف جوهرى وان أبرز هذا الخلاف هو أن الشيعةالاثنى عشرية يدعون العصمة لامير المؤمنين (على) وأحد عشر رجلا من سلالته وان لم يدعها (على) لنفسه او واحد من بنيه) وقال الخطيب ان النبى وحده هو المعصوم فى هذه الامة ولا معصوم فيها غيره وهو وحده مصدر التشريع واصحاب رسول الله هم حملة شريعته وأمناؤها الذين أدوها الى الامناء بعدهم .

واشار كثير من الباحثين بان الخلاف بين السنة والشيعة ينصب على ثلاث مسائل (١) الرجعة (٢) زواج المتعة (٣) عصمة الائمة (وان هذه جميعها مسائل فرعية فما دام الاختلاف لا ينصب على أصول الدين ومبادئه الاساسية كالوحدانية والنبوةوفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج والتصديق بالميعاد والقبلةوالقرآن فان خلاف ذلك يعد من المسائل الفرعية التى لايضير الخلاف فيها٠

بين السنة والوهابية

وقد استغل الاستعمار والغزو الثقافى والتغريب الخلاف بين أهل السنة والوهابيين وكان هذا منذ وقت بعيد ، عندما أغرت السلطة العثمانية محمد على بالوهابيين فى فجر دعوتهم فقامت

تلك المعارك الضخمة التى قضت على القوة الجديدة التى كانت تحاول ان تحرر الاسلام من البدع والخرافات حول العقيدة الاصلية

وقد كانت هذه الدعوة تحمل فى ثناياها العمل بمفهوم الاسـلام لتحـرير الوطن الاسـلامى من الاسـتبداد العثمـانى والنفـوذ الاستعمارى الغربى الذى كان قد استفحل فى هذه الفترة

وقد كان محمد عبده من أنصار الدعوة الى تحرير الاسلام على النحو الذى دعا اليه محمد بن عبد الوهاب . ثم ظل الصراع قائما فى الأزهر وخارجه حول المذهب التقليدى والمذهب الوهابى حتى عاد محمد مصطفى المراغى الى حمل لواء الدعوة الى علاج أمراض العالم الاسلامى وتحرير العقيدة .

الخلاف بين السنة والصوفية :

وكان الوجه الثالث للخلاف هو الخلاف بين أهـل السـنة والصوفية أو بين الفقه والتصوف ولقد كان للطرق الصوفيـة دوران واضحان لا سبيل الى انكارهما :

الدور الاول هو استغلال الاستعمار لهذه الفرق لخدمةأغراضه والدور الثانى هو ما قام به المتصوف المسلم فى قلب أفريقيا من الدعوة للاسلام ونشره على نحو عجزت عنه قوى التبشير الضخمة المؤيدة بمال وجاه الدول المستعمرة .

وفى مصر فى ابان الاحتـلال البريطانى كانت الطريقـة الدمرداشية التى يرأسها عبد الرحيم الدمـرداش تحظى برعـاية الاستعمار . وقد حرصت الصحف الدائرة فى فلك التغريب أن تدعو لها وتحميها وتصورها بصورة العمل النافع .

وفى السودان وفى المغرب كانت بعض الطرق الصوفية أداة من أدواته وقد قام عبد الحميد بن باديس فى الجزائر ومحمد عبده

وغيرهم من أهل الفهم الصحيح للاسلام الى مقاومة هذا التيار الخاضع للاستعمار ٠

وقد صور محمد عبده الطرق الصوفية بأنها : هذه الفئات التى تتكون من خليط من الناس جمعتهم وحدة الفرار من الدنيا وحب الكسل والابتعاد عن أى عمل يعود على الانسانية بالنفع ٠ وهم اما فاشل عجزت نفسه عن السير فى طريق الحياة والاخذ بالاسباب والمسببات . واما مسخ مشوه منبوذ فى المجتمع واما طريد من طرداء العدالة أراد أن يتستر وراء هذا المظهر الخادع حتى يفلت من القصاص . وأما ابله قد القى فى روعه انه حبيب الله وصفيه وقد وجد لهؤلاء أنصار ومحبذون يؤيدونها وينشرونها بين الجماهير فيخدرونهم بمخدرهم السام ، وهم يلقون فى روع الناس أن الحياة الدنيا دار فناء ويأخذون فى ذمها وتنفير الناس من العمل السليم ومما يسمع عنهم قول العامة ان الرزق ليس بالشطارة وان المجتهد قد لا يكون له نصيب من الحياة وان الخامل قد يصيبه المجد فيها وان الدنيا دار فناء والزهد خير من التمسك بها ٠٠

ومما يذكر فى هذا الصدد ان الاستعمار قد أفاد من جموع الصوفية فى رسم صورة مزرية للشعوب التى احتلها ، وقد نشرت الصحف ١٨-٤-٣١ أن احتفالا فى تكية المولوية بالحلمية الجديدة قد حضره الاجانب من فرنسيين وأمريكان وألمان وانجليز وثلاثة وزراء مفوضين ٠ وقالت ان الدراويش قاموا وانتظموا فى حفلة الذكر المستديرة وأخذوا يذكرون الله ٠ وكلما احتدم الموسيقيون فى عزف الأناشيد رأيت الدراويش قد امتدوا فى اللف والدوران على نحو بديع ٠

وقد كانت تنقل هذه الصورة الى أوربا على أنها هى (صورة الاسلام) وقد ظهرت فى خلال فترة سيطرة الاستعمار على العالم

العربى عديد من الطرق التى لم يكن لها هدف سوى خلق روح القدرية والنكوص عن الجهاد ومخالفة مفاهيم الاسلام فى الحرية والجهاد ، أما السنوسية والمهدوية فقد آمنت بمفاهيم الاسلام وقامت دعوتهما على أساس تحرير الوطن من الاستبداد العثمانى ومقاومة النفوذ الاجنبى وجهاد المهدوية ضد الانجليز وجهاد السنوسية ضد ايطاليا معروف .

وقد صور « أحمد توفيق المدنى » ما تطورت اليه الزوايا الصوفية فى الجزائر بعد الاحتلال الفرنسى (ك ـ الجزائر ـ ١٩٤١) حيث « انقلبت الزوايا بعد مؤسسيها الأولين الى معاهد خرافات وأباطيل تستثمر غفلة العامة وبلههم فتنال منهم مال السحت الذى يدفعونه بصفة نذور وينفقه رجال الزاوية على ملاذهم وملاهيهم ومنكراتهم ، وآل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق الى أحداث وثنية فى الاسلام وأصبح شيخ الطريقة يتصف بأوصاف (الربوبية) فهو الذى يعطى ويمنع ويقبض ويبسط ، وتطور الأمر الى اقامة حفلات مؤلمة فى مواسم معينة بقصد جلب السواحين ، يقومون بدور المهرجين فى الملاعب • والاوربيون يعتقدون أن ذلك هو عين الاسلام • هذه المنكرات الدنسة جعلت المتنورين ينفرون من الاسلام وينبذونه ولذلك فقد قامت فى الجزائر حركة اصلاحية جسيمة ضد هذه المنكرات على رأسها « الطيب العقبى » الذى كرس حياته وكتاباته لدحض مفتريات المفترين » •

وأشار « علال الفاسى » فى كتابه (المغرب العربى) عن دور الطرق الصوفية فى مراكش قال « ان الدعاية الفرنسية جندت فى الشمال الافريقى قسما كبيرا من مشايخ الطرق الصوفية الذين اعتادوا أن يعملوا لمصلحة رجال الحكم أو الذين خلقتهم الادارة الفرنسية لتسخيرهم فى أغراضها فاشتغل محمود التيجانى

فى الجزائر وعبد الحى الكنانى فى المغرب وابن عزوز فى تونس دعاة متحمسين للسياسه الفرنسية ٠

وقال : ان الطرق الصوفية كان لها أثر كبير فى المغرب العربى ولكن تدهور الامل وتغلغل الفوضى الاجتماعية فى معظم القبائل قلب هذه الطرق الى منظمات يشرف عليها فى الغالب انتفاعيون نصبوا أنفسهم ليكونوا الوساطة الفعالة بين الحكومات المحلية وبين الشعب ، فكانت السلطة لا تستطيع حفظ الامن ولا جبى الضرائب ولا تعبئة الجيوش الا عن طريق هؤلاء الذين يدعون انهم يشقون عليها من بركة نفوذهم ما يسهل عليها تحقيق أغراضهم ، وقد سار هؤلاء المشايخ يتجولون فى القبائل والمدن يبشرون بسقوط الالمان وبشاعة حكم الاتراك وينوهون بقيمة العمل العظيم الذى تقوم به فرنسا وانجلترا فى الشرق العربى ٠»

ومما ذكره علال الفاسى أن فرنسا اتجهت الى انشاء خلافة اسلامية فى افريقيا الاسلامية تحت حكم سلطان فرنسا ٠

ومما يتصل بهذا أن المسلمين الذين تيقظوا الى خطر هذه الفرق على حركة التحرر قد فطنوا أيضا الى مفاهيم الاسلام الحقة التى تحرفها الطرق الصوفية على النحو الذى صوره الشيخ محمد عبده من الدعوة الى التواكل والقدرية وتنفير الناس من العمل ، وتحت هذهالعناوين يمكن دعوة الناس الى قبول الاستعمار والرضى بالحاكم المستبد وقبول الغزو الاجنبى ٠ وهذا ما يختلف اختلافا بينا مع ما دعا اليه الاسلام من الجهاد ومقاومة الغاصب واليقظة والسعى فى الارض واقتحام مجاهل العلم وكشف قوى الطبيعة والعمل المتصل ٠

ولاشك أن الطرق الصوفية فى مذاهبها هذه تختلف اختلافا واضحا عن مذهب (التصوف العقلى أو الجسدى الذى دعا الى رياضة النفس على قمع الشهوات ورفض الدنيا ٠ فان هذا المذهب

من شأنه أن يدفع المسلم الى الجهاد فى سبيل الله مفطومة نفسه عن كل لذة أو متعة تصرفه عن هذا الجهاد · مؤمنا بالاستشهاد فى سبيل الحق الذى يؤمن به حيث يرى الدنيا لا تغريه وهذا هو الفهم الصوفى الذى فهمه المجاهدون من المسلمين فى الصدر الاول · أما الزهد بمعنى الانصراف من الدنيا فهو ليس مذهبا فى الاسلام ·

وقد حرص دعاة التغريب من المبشرين والمستشرقين وأعوانهم من كتاب الغرب الى البحث فى الصوفية واثارة مذاهبها ودعاواها والحديث عن المتطرفين من دعاتها أمثال : السهروردى وابن عربى والحلاج وعبد القادر الجيلانى وهم فى ذلك انما يهدفون الى بلبلة الفكر العربى واثارة مذاهب الحادية ومعقدة يقصدون من ورائها تصوير الاسلام بصورة غير صورته البسيطة السهلة ، ومن ذلك مذهب الحلول ووحدة الوجود و (الشريعة والحقيقة) وغير ذلك من مذاهب كلامية لم تكن أصلا من الاسلام وانما أدخلت عليه من الفلسفات المسيحية والهندية واليونانية ·

دعوة الاجتهاد :

حمل الفكر العربى المعاصر لواء الدعوة الى فتح باب الاجتهاد والعودة بالدين الى منابعه الاولى كخطة لمقاومة حملات التغريب والغزو الثقافى وكوسيلة لاشاعة اليقظة والتحرر من قيود التقليد التى كانت عاملا أساسيا فى تجميد الفكر خلال حكم العثمانيين·

وكان محمد بن عبد الوهاب أول من حمل هذا اللواء متأثرا بدعوة أحمد بن حنبل وابن تيميه غير أن الوهابية لم تستطع أن تحرز المدى الواسع الكفيل باندفاعها ثم جاءت دعوات من بعد حملت هذا اللواء . وانطلقت به الى أقاليمها. كالمهدوية والسنوسية وغيرها · غير أن جمال الدين الافغانى كان أقوى من حمل هذا

اللواء الى العالم الاسلامى كله فى كلماته القليلة وكتاباته النادرة وفى مصر حمل اللواء من بعده محمد عبده ورشيد رضا والمراغى وتأثرت خطاه الشام فظهر بها الكواكبى والمغربى والعراقى فظهر بها آل الالوسى وفى المغرب برزت الدعوة الى السلفية واحتلت حيزا كبيرا من الفكر العربى كسلاح قوى لمقاومة الاستعمار والتغريب والغزو الثقافى والتبعية الثقافية للغرب ٠

رأى الشيخ محمد عبده :

ويرى الكثيرون أن محمد عبده هو عماد التجديد والاصلاح الدينى فى العصر الحديث (محمود الشرقاوى ــ ١٥ــ١ــ٣٦ ــ البلاغ) فقد وضع فى كتابه (الاسلام والنصرانية) القاعدة حيث قال :

« عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصا مما عرض عليه من بعض أهله أو محدثاتهم التى ربما تكون قد جاءتهم من دين آخر ٠ فاذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الى منشأ الدين ٠ ومن تلقوه على سذاجته من صاحب الدين نفسه ٠»

ومن اراء محمد عبده فى تعليم المرأة وتعدد الزوجات يقول « ان الاسلام يقرر المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الامور الجوهرية ٠ وان الاسلام لا تتجلى محاسنه باعتباره دين أنزل للناس كافة فى شىء أكثر مما يتجلى فى تكريمه المرأة والاعتراف بما لها من مقام ٠ »

ويرى ان تجويز تعدد الزوجات فى الاسلام كان لضرورات اجتماعية جعلته محتوما على أن هذه الاباحة قد شرطت لها

شروط ، وأحيطت بتحفظات هى مستحيلة استحالة عملية • وان الزواج بواحدة هو الأصل وهو المثل الأعلى فى الحياة الزوجية •

ويرى محمد عبده فى مجال الاجتهاد أن للامام ان يمنع المباح الذى تترتب عليه مفسدة مادامت المفسدة قائمة به والمصلحة بخلافه • وعند محمود الشرقاوى أى الشيخ محمد عبده يرى أن الشريعة ليست شيئا جامدا لا يتحول بتحول الزمن والمصلحة بل هى مطاوعة لذلك دائرة على منفعة الناس •

رأى رشيد رضا :

ويرى رشيد رضا (٢٠ فبراير ١٩٣٦ — البلاغ) لتجديد قواعد الشريعة بعد الرجوع الى بساطتها الاولى • ان يقوم علماء المسلمين بتأليف كتاب جامع لكل العقائد والمبادىء الادبية التى أجمع عليها المسلمون فى مختلف الفرق • وان ينقل هذا الكتاب الذى يعد دستورا الى كل اللغات التى ينطقون بها على أن يكون على قدر كبير من المسامحة والتوسع •

أما ما وقع فيه الخلاف فى صدر الاسلام فهو غير واجب • ويترك فيه الامر الى التخيير • وكذلك مسائل الفروع يترك لكل مسلم أن يتبع فيها المذهب الذى يختاره

وعنده أن توحيد العقائد بهذا الدستور سيؤدى بمرور الزمن الى تخفيف حدة التعصب لمذهب معين •

ويرى انه بالنسبة لاحكام المعاملات والامور الخاصة بالحياة الدنيا ومعايش الناس ينبغى أن تكون مستقلة عن الدين ولا تعد جزءا من قانون مقدس لا يتبدل الى الابد ولا يتغير • بل يحكم فيها العرف على اختلاف الزمان والمكان •

ويرى أن طبيعة الاستمرار والجمود التى أوجدتها كتب المذاهب الاربعة المشهورة وأوجدها اقفال باب الاجتهاد كان لها دخل كبير فى تأخر البلاد الاسلامية وعدول بعض الدول الاسلامية عن اتباع أحكام الشريعة ٠

ويرى مصطفى المراغى أن الموجة التى طغت على الشرق من الغرب ضد التدين أخذت تضعف وأخذ الشرق يدرك ضرر التقليد فى كل شىء ويدرك أن قوة الغرب وتفوقه لم يكن بهذه المسائل التافهة من التبرج والاناقة واختلاط الجنسين بل قامت على العلم والخلق ومجد الوطن ٠

موقف التغريب ازاء الفقه والتشريع الاسلامى

كانت معركة الاسلام الكبرى مع التغريب هى مواجهة الادعاء بأن الاسلام دين عبادة وصلوات وطرق صوفية وان القرآن كتاب يقرأ للبركة ، وان الاسلام بذلك يجب فصله عن الدولة ٠

وقد حاول التغريب ودعاته تأكيد هذه النظرية الخاطئة فى كل بلاد العالم العربى والاسلامى بواسطة أجهزتهم المختلفة من صحافة وكتابة وجامعات ومحاضرات وأبحاث وذلك حتى يتم القضاء على الاسلام كنظام ومنهج اجتماعى وسياسى كامل ٠

والواقع كما يقول (نبيه أمين يونس) وهو أحد المفكرين العرب المتصلين بدوائر الغرب (ك : هذا العالم العربى — ص٤٦) ان الاسلام نظام تام شامل لمتطلبات الدنيا والآخرة ، وهو نظام اجتماعى يحدد شكل الأسرة وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض ،

وسلوك الافراد فى معــاملاتهم الدنيــوية ، وهو نظام ســياسى وتشريع مدنى يعين شكل الدولة وعلاقة الحاكم بالمحكوم وهو الى ما تقدم علم ومدنية وتاريخ « وانه لهذا كان بعيد الاثر » فى توحيد العرب والمسلمين عاطفيا وربطهم بوحدة المثل الاعلى وجعل النظم الاجتماعية والفكر متشابهة » •

وقد أشار جب الى أن « التغريب » استطاع أن ينزل الإسلام من فوق عرشه فى أنظمة الحكم والاجتماع والاقتصاد والتربيــة والتعليم •

وكان أهم ما دعا اليه الغربيون فصل العلم عن الدين وفصل الدين عن الدولة •

وفى مجال الفقه الاسلامى أسقط الاستعمار النظم الاسلامية والقوانين القائمة وفرض بدلا منها الانظمة والقوانين الاوروبيــة المستمدة من الشريعة اليونانية والمسيحية دون النظر الى وجــه الالتقاء أو الخلاف أو الحاجة •

وأثار فى ظل ذلك حملة ضخمة على الفقه والتشريع الاسلامى متهما اياهما بالقصور وعدم القدرة على الاستجابة والتطور •

غير أن هذه الحملة قد تحطمت على صخرة عاتية . فقد عقدت مؤتمرات قانونية عالمية اشادت بالشريعة الاسلامية ، كان أبرزها مؤتمر القانون المقارن فى لاهاى عــام ١٩٣٢ الذى أكــد مركز الشريعة الاسلامية كمصدر للتشريــع بعد البيانات والابحاث التى قدمها الدكتور عبد الرازق السنهورى وعلى بدوى ومسيو لامبير وكان من نتيجة هذه الأبحاث أن قرر المؤتمر بالاجماع أن « الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن • وهى حية صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة وأنها جديرة بأن تشكل مصدرا ممتازا من مصادر القانون المقــارن وأكد استقلالها عن التشريع الرومانى » .

وقد أيد كثير من الباحثين الأوربيين المنصفين قوة الشريعة الاسلامية وقدرتها على مواجهة مطالب العصر . وكان المسيو ادوار لمبير ناظر مدرسة الحقوق الخديوية فى القاهرة عام ١٩٠٦ كان قد اعد مؤلفا عن القانون المقارن ضمنه فصلا عن الشريعة الاسلامية فلما جاء مصر اتصل بأعلام الشريعة وتاريخها وأصول تطبيقها ، وقد كان يظن أن القانون الرومانى أثر تأثيرا كبيرا فى الشريعة الاسلامية ولكن تبين له بعد ذلك أن هذه الشريعة مستقلة بذاتها ، واعلن أن فى الشريعة الاسلامية كنزا لا يفنى ومنبعا لا ينضب ، وانه خير ما يلجأ اليه المصريون فى العصر الحاضر فى البحوث العلمية حتى يعيدوا لمصر وبلاد العرب هذا المجد العلمى .

وقال انه استبان له أن ليس للقانون الرومانى أى أثر فى الشريعة الاسلامية وانها شريعة مستقلة .

وأعلن ليفى أولمان أستاذ الحقوق بجامعة باريس : اعتبار الشريعة الاسلامية فى المعاملات مصدرا للقانون المصرى .

وقال الدكتور ايزيكو انساباتو : ان الشريعة الاسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الاوربية بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا .

وقال فارس الخورى ان محمدا أعظم عظماء العالم ، والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها ، وان محمدا أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية .

ولم يستطع علماء القانون المنصفون الا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس اليها باسم الله ولأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

وقال ستيلانا فى بعض مؤلفاته : ان فى الفقه الاسلامى مايكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم تقل أن فيه ما يكفى الانسانية كلها .

وقال سليم باز المسيحي اللبناني (شارح مجلة أحكام العدلية) أعتقد بكل اطمئنان بأن في الفقه الاسلامي كل حاجة البشر من عقود ومعاملات وأقضية والتزامات وأن في مختلف خزائن البلاد الاسلامية ودور الكتب الأوروبية في هولندا وروما وبرلين وباريس والمتحف البريطاني والمكتبة البابوية في قصر الفاتيكان ، ألوف الكتب الفقهية الاسلامية التي هي جهود فحول العلماء ، وهي الشاهد الاكبر على أنه لا يوجد معنى من معاني الاحكام المنشود فيها العدل ولا حاجة من حاجات البشر في التشريع الا تقدم لفقيه مسلم قول فيه .

وقال **الدكتور محمود فتحي** : ان نظرية « الاعتساف » التي ابتكرها القانون المدني الألماني عام ١٧٨٧ قد تكلم فيها التشريع الاسلامي طويلا ابتداء من القرن الثامن الميلادي .

وقال **الدكتور « شيرل »** عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا في مؤتمر الحقوقيين : ان البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد اليها اذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشرة قرنا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد ألفي سنة .

وقال « **هولكم** » أستاذ الفلسفة بجامعة هرفارد : الشريعة الاسلامية تحتوي على جميع المبادىء اللازمة للنهوض .

وقال **الدكتور عبد الرازق السنهوري** : ان المقارنة بين الشريعة الاسلامية وبين شرائع الغرب كفيل بأن يظهر من ذخائر الشريعة الاسلامية في المبادىء والنظريات ما لا يقل في رقي الصياغة واحكام الصنعة عن أحدث المبادىء والنظريات وأكثرها تقدما في العالم العربي ..

وقال علي بدوي : ليست مظاهر استقلال الفقه الاسلامي وتفوقه محصورة في القواعد المدنية والأحوال الشخصية ولكنهـا تبينت كذلك في عدة مواضع من التشريع الجنائي الاسلامي ·

ويقول الدكتور صبحي محمصاني « في كتاب العرب والحضارة الحديثة » : التشريع الاسلامي كان وظل قادرا على التجـاوب مع المجتمع · وقد فتح التشريع الاسلامي أبوابا للحفاظ على الغـاية الاجتماعية والاقتصاد والاجتمـاع · وقاعدة تغير الأحكام بتغير الأزمان مسالك لصرف التشريع الى غايته الأساسية وهي تحقيـق مصلحة المجتمع الانساني · وقال : ان التشريع الاسلامي كان قابلا للتطور والنمو وملاءمة الامكنة والأزمنة المختلفة التي مرت عليه .

وأشار « **حسن جلال** » الى أنه في عام ١٩٥١ عقدت شـعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولي للقانون المقارن مؤتمرا للبحث في الفقه الاسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم اسـبوع الفقه الاسلامي ودعت اليه عددا من المستشرقين وأساتذة القانون في الدول العربية وجرت أبحاث حول الفقه الاسلامي ، وأشار الى أن نقيبا سابقا للمحامين في باريس قال :

« لست أدري كيف أوفق بين ما كان يحكي لنا عن جمود الفقه **الاسـلامي وعدم صلاحه** أساسا تشريعيا يفي بحاجات المجتمـع العصري ذات قيمة أكيدة لا مرية في نفعها ، وان اختلاف المذاهب في هذا الجهاز التشريعي الضخم ينطوي على ثروة من الآراء الفقهية وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التي تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة ·

الرد على ادعاءات المستشرقين :

ورد كثير من الكتاب المنصفين على ادعاءات المستشرقين فقـال **الدكتور صبحي محمصاني** « ك· العرب والحضارة الحديثة » : ان

ما زعمه بعض المستشرقين من أن الشريعة الاسلامية مقضى عليها بالخمول قول فاسد . وقال أن أبرز ملامح الشريعة الاسلامية :

١ — ان الاجتهاد واجب فيها والتقليد الاعمى محرم .

٢ — أن الشريعة الاسلامية ليست مذهبا واحدا ، بل مجموع المذاهب ..

٣ — أن توسيع الفقهاء فى أولية التشريع ومصادرة الاخذ بمبادىء الانصاف المطلق بطريق الاستحسان والاستصلاح : كل ذلك كان له أثر فى جعل الشريعة الاسلامية من أعدل الشرائع وأقربها الى المثل الاجتماعية العيا .

٤ — ان قاعدة تغيير الأحكام تطبق فى جميع المسائل التى لا يوجد فيها نص فى القرآن والسنة .

ودعا « **جستنيان** » ٧-١١-١٩٣٦ (الأهرام) الى تجميع أحكام الشريعة الاسلامية المتعلقة بالمعاملات فى « باندكت » اسلامى . وقال انه خير معوان للاسترشاد به فى اعداد موسوعة اسلامية عن المعاملات ..

الدكتور السنهورى :

وقد خطا الدكتور عبد الرازق السنهورى خطوة واسعة فى سبيل التقنين الاسلامى المدنى عندما كان عميدا لكلية الحقوق فى بغداد فى وضع مشروع قانون مدنى جديد للعراق وان المشروع وضع على أساس أحكام الفقه الاسلامى فى مذاهبه المتعددة (مطعما) بأحكام القوانين الأوربية .

وفى عام ١٩٣٨ بدأ الدكتور السنهورى ، والمسيو لامبير ، فى وضع المشروع التجهيزى للقانون المدنى المصرى ، متخذا من الشريعة الاسلامية أساسا وصفه « **عبد المنعم الصدة** » بأنه تراث

قانونى طالما تنكرنا له واصدرنا فيه أحكاما بالباطـل ، وقال : ان مصر رزئت بقوانين اقتبس معظمها من قوانين اجنبية وضـعت لأناس يختلفون عنا أشد الاختلاف فى العادات والأخلاق والبيئة ، واذا علمنا أن واضع قانوننا كان اجنبيا أدى مهمته فى أشهر معدودة ولم يكلف نفسه فى أثنائها سوى القيام بنقل الأحكام التشريعية الأجنبيـة دون تعديل أو تحوير ، أمكننا أن ندرك الى أى حد كان التعـديل ألزم » ..

وقال **الدكتور السنهورى** فى مقدمة كتابه « نظرية العقد » عن فكرته فى تمصير الفقه فقال : « علينا أولا أن نحصر الفقه فنجعله فقها مصريا خالصا ، نرى فيه طابع قوميتنا ، ونمس أثر عقليتنا ففقهنا حتى الآن لا يزال هو أيضا يحتله الأجنبى والأجنبى هنـا فرنسى ، وهو احتلال آخر ليس بأخف وطأة ولا بأقل عنتا من أى احتلال آخر .. ان لدينا ثروة تشريعية يفرض علينا واجبنـا أن نستغلها وأن نحسن استغلالها هى « الأحكام الشرعية الاسـلامية » منها ما يعد مبادىء عامة أساسية هى بمثابة قواعد للنظام العـام بحيث تسمو فوق كل تغيير أو تبديل ويتعين احترامهـا فى كل زمان ومكان » .

ويقول **الدكتور السنهورى** فى كتابه نظرية العقد : « الشـريعة الاسلامية شريعة الشرق ووجهه الهام وعصارة أذهـان مفـكريه ، نبتت فى صحرائه وترعرعت فى سهوله ووديانه فهى قبس من روح الشرق ، ومشكاة من نور الاسلام يلتقى عندها الشرق والاسـلام فيضىء ذلك بنور هذا ، ويسرى هـذا فى روح ذلك حتى ليمتزجا ويصيرا شيئا واحدا ، هذه الشريعة الاسلامية لو وطئت أكنافها ، وعبدت سبيلها لكان لنا من هذا التراث الجليـل ما ينفـح روح الاستقلال فى فقهنا وفى قضائنا ، وفى تشريعنا ، ثم انه ليشـرفنا أن نطالع العالم بهذا النور الجديد فيضىء به جانبا من جوانب الثقافة العالمية فى القانون ..

وقال : انها دعوة باطلة تلك التى يقول أصحابها ان الشريعة الاسلامية التى كانت صالحة بالأمس لم تعد تصلح لأن يؤخذ بها اليوم ..

وقد أوضح **الدكتور محمد كامل مرسى وسيد مصطفى** فى كتابيهما « أصول القوانين » والدكتور على بدوى فى كتابه « تاريخ القانون » بجلاء أن الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وانها غير ما يتوهمه البعض من أن أحكام الشريعة الاسلامية ثابتة وغير متطورة ، وقال اننا جميعا حينما ننادى بالرجوع الى الشريعة الاسلامية لا نطلب قلبا للاوضاع ومحوا لجميع الأحكام الحاضرة ، ذلك لأن جزءا كبيرا من التشريع الحالى يمكن قبوله واقراره ، وهو لا يتنافى مع مبادىء الشريعة الاسلامية .

تجربة السنهورى :

وأشار السنهورى الى تجربته فى التقنين المدنى الاسلامى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٣٦ ، قال : وضعت نصب عينى عندما بدأت العمل فى وضع مشروع القانون المدنى أن أضع قانونا أوفق فيه ما بين أحكام مجلة الأحكام العدلية ، وبين الشريعة الاسلامية بوجه عام . وأحدث الأحكام المدنية المعمول بها فى البلاد الغربية . بدأت بوضع نموذج اخترته من بين التقنينات الغربية حديثها وقديمها . .واخترت لذلك بعض التقنينات الغربية وعلى رأسها التقنين الفرنسى والتقنين المصرى والتونسى والمراكشى واللبنانى ، وأخذت من المشروع الفرنسى الايطالى التقنينات الجرمانية نموذجا يعد فى نظرى المثل الأعلى للتشريع المدنى فى العصر الحاضر .. وبحثت ما يقابله من مذهب أبى حنيفة والمذاهب الأخرى الاسلامية وهكذا قدمت للعراق مشروع عقد البيع مأخوذا من أحدث التشريعات الغربية ، ولا يكاد يختلف فى شىء من أحكام الشريعة الاسلامية .

موقف الفكر العربى من الحملة :

وقد واجه الفكر العربى المعاصر قضية التشريع الاسلامى مواجهة واضحة قوية كشف فيها عن عظمة هذا التشريع ومرونتـه وقدرته على مواجهة التطور والحضارة فى مختلف الأزمان والبيئات ٠

وقد دعا الفكر العربى الى فتح باب الاجتهاد ورفض التقليد ٠٠ وآمن بأن « المقلدون فى كل أمة ، المنتحلون أطوار غيرهـا يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليهـا وتكون مداركهم مهـابط الوساوس ومخازن الدسائس » ٠

وظهر الاتجاه الى توحيد المذاهب الاسلامية وعدم التقليد بمذهب واحد ، على أساس الحقيقة التى تقول بأن الشريعة الاسلامية ليست مذهبا واحدا بل هى مجموع المذاهب دون تقييد ٠

وقد كشف عن أن الخلاف بين المذاهب لم يقم على المبـادىء والتعاليم الاسلامية ، بل كان وقفا على الفروع ، وان اختـلاف المذاهب كان من أسباب مرونة الشريعة الاسلامية وتطورها ٠ وأن بعض الأحاديث قد وضعت فى بعض عصور التاريخ الاسلامى خدمة للسياسة وانتصارا لبعض الأحزاب « الدكتـور محمصانى (ك٠ العرب والحضارة الحديثة) ٠

وكشفت الدراسات المختلفة من أن الجماعة الاسلامية اعتقـدت فى العصور المتأخرة أن أبواب الاجتهاد قد أقفلت فى وجه أى تفسير مما أدى الى ركود المجتمع الاسلامى ٠ وان الحركة الوهابية سبقت الغزو الثقافى ، وكانت آيذانا باليقظة وفتح باب الاجتهـاد ٠ وقد اشتد هذا التيار وتعمق من بعد داعيا الى العودة الى القرآن والسنة واعادة فتح باب الاجتهاد واعادة تفسير قوانين الاسلام للجماعات وكشف الطبقة الجامدة التى علت وجه الفكر العربى الاسـلامى ، وجرى طويع القوانين العلمانية الغربية للحياة الاسلامية ٠٠ كما فعل الدكتور عبد الرازق السنهورى فى اعداد القانون المدنى ، فقد

نصت اخر مادة فى هذا القانون على انه اذا درست قضية وثبت انه لا يطبق عليها أى قانون وجب أن يعتمد الحكم فيهـــا على أرحب تفسير لأي قانون اسلامى فى أحد المذاهب ٠

وكشفت هذه الابحاث عن حقائق لا سبيل الى الشـــك فيها ، وهى أن الاسلام من حيث كونه نظاما مدنيا قد توافرت فيه مرونة تمكن المجتمع الاسلامي من التطـــور دون كونه اهمال قواعـــده الأساسية باقراره حكم العادة والاجتماع والاجتهاد ٠

وانه تشريع مرن قابل لان يكون تشريع كل زمـــان ومكان وله القدرة على مسايرة حاجات المدنية الطارئة ، وأحوال المجتمـــــع المدنيـــة ٠٠

وان الاسلام لم يكن عائقا للمجتمع عن التقدم ٠٠ وكانت صيحة جمال الدين الباكرة : « يجب أن تتحرر عقول النـــاس من كدر الخرافات وصدأ الاوهام » ، وان الاسلام دين ومجتمع وسياســـة واقتصاد ٠٠

وكان هذا ردا حاسما على الحملات العنيفة التى وجهها الغرب الى الاسلام بقصد تنحيته عن مكانه فى الحياة العربية والقضاء على جوهره ومفاهيمه فى الجهاد والمقاومة والحرية من ناحية ، والقضاء على جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتغليب الانظمـــة الغربية بحسبانه أنه القوة التى تقاوم الاستعمار وذلك جريا وراء تمزيق الوحـدة واضعاف الجبهـــة بالتفرقة المذهبيـــة والعصبية الشعوبية والحيلولة دون مبادىء الاسلام وتعاليمه وبين التطبيـق والبقاء مع صلاحيتها التامة للمجتمع وقابليتهـــا للتطور وضرورة بقـــائها ٠

وقد أشار « ويلفرد كانتول شمت » بصدد الاشارة الى محاولة بناء مجتمع اسلامى فى القرن العشرين قال :

« ان تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء .. وما لم يكن المثل الأعلى اسلاميا على وجه من الوحدة لن تثمر الجهود البتة .

وبذلك كله فشلت الدعوة للتغريب فى « اقصاء الاسلام عن مجال الحياة ومناهج التربية والقضاء والحكم » .

* * *

حملات على الدين

مهاجمة الدين واعتبار الاسلام سبب التخلف

تعددت حملات كتاب الغرب الذين قادوا معركة التغريب الثقافى على الدين وعلى الاسلام بالذات بادعاء انه سبب التخلف للعـــرب والشعوب التى اعتنقته .

وتمثل الحملة عـــلى الدين ومهاجمة الاســـلام بحملة الدوق داركور بكتابه « مصر والمصريون » الذى صدر عام ١٨٩٣ جريا فى نفس الطريق وان اقتصر بالكتابة على المصريين وحدهم .. وقد ضم كتابه سلسلة من المطاعن القاسية ، وكان قوامه التعصب .

وحاول مؤلف الـكتاب أن يصـــور الاســـلام فى صـــورة الدين الخرافى العتيق .. ويصور المسلمين فى صور الضعاف العجزة . ونعى على المصريين ضعف الخلق القومى وعزا تأخر الحركة الفكرية الى الاسلام . وقال انه ـ أى الاسلام ـ هو السبب الأســـاسى فى هذا التأخر وانه لا يحض على البحث فى العلوم غير الدينية وأنكر أن للعرب الأولين مدنية خاصة ، وآتهمهم باحراق مكتبة الاسكندرية وادعى أن الاسلام هو الذى أمر بالحجاب .

رد قاســـم أمين

وقد رد قاسم أمين على دوق داركور بكتـــابه « المصريون » باللغة الفرنســـية . وقال ان داركور ملء بالحقد عـــلى المصريين والاسلام .. جاهل بأصول الدين وتاريخ العرب .. وان ما يوجد

فعلا مما رمى به المصريين من قصور لا يرجع الى طبيعتهم ولا الى دينهم ·· وإنما يرجع الى أنهم كانوا يعيشون فى ظل الاستبداد الذى أوقف تقدمهم ونهضتهم ·

وقال قاسم أمين : ان الاسلام سبق الثورة الفرنسية بألفى سنة أو يزيد حيث أنكر امتيازات النبلاء والثروة · ودعا الى العدالة الاجتماعية ·· وان ليس فى الاسلام طبقة تمثل السلطة الروحية التى كانت للكنيسة وانه أفسح المجال للكفايات وجعل للفقراء حقا معلوما فى أموال الأغنياء ·· وان النظام الاسلامى يؤكد الاخاء والمساواة ·· وان ضعف هذا النظام انما حدث نتيجة لاضطراب المسلمين وقيام أمراء طغاة يحكمون العالم الاسلامى مما أدى الى شيوع الظلم والقسوة ·

وان الاسلام ليس هو الذى أنزل المرأة هذا المنزل ·· اذ أنه قد منحها من الحقوق ما لم تكن المرأة الفرنسية قد منحته فى أواخر القرن التاسع عشر ·· فالمرأة المسلمة اذا تزوجت كان من حقها أن تحتفظ بحقوقها المدنية فلها الكفاءة شرعا على أن تتصرف فى أمورها ··

ونقد **قاسم أمين** حال المرأة في أوربا وقال : ان نظام تعدد الزوجات والطلاق نظام أرقى وأنقى من نظام الخلائل والتعدد غير الشرعى السائد فى فرنسا وأوروبا ·· هذا النظام الذى يطبع الأطفال بطابع الجريمة ·· وان الاسلام قد احتاط لهذه الأخطار على أن الأصل أن يكون للرجل زوجة واحدة ·

واورد **قاسم امين** احصاء عن البغاء فى فرنسا ودلل على أن ربع المواليد فيها غير شرعيين · وان ١٥٠ ألفا منهم قتلوا وهم يخرجون من بطون أمهاتهم ·

وقال قاسم امين : ان المصريين يؤمنون بان الفضيلة مثل معنوى أعلى يضحى فى سبيله بلذات الدنيا ·

وان الاسلام لم يمنع المصريين من دراسة الرياضة والجغرافيا والكيمياء والطبيعة والفلك ٠٠ وليس هو الذى أسلمهم لجماعة الطغاة المستبدين ٠٠ وان الاسلام لم يعترض تطور العقل الانسانى ولا تقدم العلوم ولا الآداب ٠٠ ولم يحل دون اكتشاف الحقائق العلمية ٠٠ وان ما تسرب الى الدين من أوهام وخرافات مما يراه بعض السائحين ليس من أصول الدين ٠٠

وخلص **قاسم أمين** الى أن الاستعمار هو الذى حال بين بلادنا وبين التقدم وان القناصل الأوروبيين كانوا يكونون حكومات داخل الدولة تحمى المجرمين واللصوص وسفاكى الدماء من رعاياهم ٠٠ وان الغرب فرض تجارته علينا ٠٠ وان رعاياهم كانوا مثلا للفساد والتسلط ٠٠ وانهم نعموا بخيرات البلاد دون أن يدفعوا مقابلا لها ٠

وأعلن سخطه على المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية ٠

وقال ان حكام مصر حاولوا السير بمصر لولا أن أوروبا خلقت لهم العثرات فأضحت البلاد مزرعة للغريب الأجنبى ٠٠ وانه على الرغم من أن مصر تقابلهم بالاحترام فانهم لم يجدوا سبيلا للاساءة الا سلكوه (ترجمة أحمد خاكى : الثقافة ـ ١٩ـ٥ـ١٩٤٢» ٠

٢ ـ حملة هانوتو

مهاجمة الاسلام والمفاضلة بينه وبين المسيحية

وكانت حملة « هانوتو » واحدة من هذه الحملات التى شنها الغرب على الاسلام ، ومحاولة اثارة الشبهات حوله والسخرية منه وقد حاول هانوتو (وزير خارجية فرنسا) أن يلصق بالاسلام كل عيب ٠٠ متهما اياه بالتعصب والتخلف ٠٠ وحاول أن يرفع من شأن المسيحية على حساب الغض من قدر الاسلام حيث قال :

« ان الاسلام رفع حق الربوبية ، وجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن ، بينما المسيحية ترفع من شأن الانسان وتخوله حق القربى من الذات الالهية ٠٠ وقال هانوتو ان نتيجة

الاتجاه الأول هو تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه وبث القنوط في قلبه وتثبيط همته » .

وقال : ان « المسيحية » هي الوارثة لآثار الآريين ، وهي منقطعة الصلة بالمذاهب السامية ، وان كانت مشتقة منها .. أما الاسلام فهو متأثر بالمذهب السامي ، ولذلك فهو ينزل بالانسان الى أسفل الدرك ويرفع الاله عنه في علاء لا نهاية له .

وأعاد قول كاتب آخر هو « **كيمون** » الذى يعتقد أن الاسلام جذام فشا بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا .. ويقول كيمون : بل هو مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمود والكسل ، ويرى أن المسلمين وحوش ضارية، ويعتقد أن الواجب ابادة خمسهم ، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح « محمد » فى متحف اللوفر .

وأشار الى أن الاسلام دين وسياسة ، وان شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية .. والرابطة المدنية أو الوطنية . فالوطن عندهم فى الاسلام ، وهم يقولون ان السلطة مستمدة من الالوهية فلا يجوز أن يتولاها الا المسلمون .

ويقول هانوتو : ان الاسلام عقبة فى سبيل العلم والحضارة .

رد محمد عبده :

ورد محمد عبده على هانوتو متهما اياه بتحريك نيران العداوة فى الفرنسيين واثارتهم على حرب المسلمين .. وقال ان أصل التمدن الآرى هو الهند وان الاسلام هو الذى حمل الى أوربا مدنيات العالم من فارس ومصر واليونان بعد أن صفاها وهذبها .. وذلك عن طريق الأندلس .. وقال انه لا صلة بين الدين المسيحى والمدنية الحاضرة .. فالانجيل يأمر أتباعه بالانسلاخ من الدنيا والزهادة فيها .. ويقص عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى فى ملكوت السماوات .. فهل تقوم المدنية الأوربية على هذا الأساس .

ثم قال : ان الفينيقيين ـ وهم ساميون ـ هم أساتذة العـــالم في الصناعه والتجارة ، بل والقراءة والكتــابة ، ولا زالت الأمم يأخذ بعضها من بعض فى المدنية لا فرق بين آرى وسام ٠

ودفع « محمد عبده » عن الاسلام تهمة الاتكال على القـــدر والجبرية ، وبين أن النبى وأصحابه جاهدوا في سبيل نشر الدعوه ولم يكتفوا بالتسليم للقدر فى اتمامها قائلين ان الذى كفل لهــم النصر يكفيهم التعب ٠٠ وان الآريين الذين دخلوا فى الاســلام من فرس ورومان هم الذين أفسدوا العقائد الاسلامية فأدخلوا فيها ما ليس منها ٠٠

وقال : ان ربط هانوتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل ٠٠ وان نظرية التشبيه لم تظهر فى المسيحية الا بعـد قرون من نشأتها ٠٠ وقال ان من المسيحيين الآن من يعتقد ان المسيح لم يكن الا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر ٠٠ أما الاسلام فقـد دعا الى التوحيد ، وبعقيدة التوحيد فتح المسلمون الدنيا وجالوا فى علوم السماوات والأرض فنبغوا فى مختلف العلوم ٠٠ وانما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقولهم ودخل فيها ما ليس منها » أ٠هـ٠

ومما يذكر أن عصر التغريب الذى امتد فى مصر خلال هــذه الفترة (١٩٢٠ ـ ١٩٤٠) قد فرض أن يختار « هانوتو » هــذا نفسه ليكتب تاريخ مصر فى مقابل ثمانية آلاف جنيــه ، والعجيب أنه كتب تاريخا مشوها نقدته الصحف وعارضه الكتاب ، فقــد زعم أن مصر لم تستغل فى حياتها الا فترات قصيرة جدا ، وأجابت مجلة النهضة الفكرية (١٨ يناير ١٩٣٢) على ذلك : بأن مصر كانت امبراطورية كبيرة يوم كانت أوربا تتخذ من الكهوف والمغاور مساكن ومن جلود الحيوانات أطعمة ٠٠ ولو لم يتصل اليونان بمصر لظلت فرنسا وانجلترا فى العصر الحجرى الى القرن العشرين ، وتساءلت المجلة : هل كانت مصر مستمرة فى عهد البطالســة أيام كانت فرنسا مسكونة بصنف من البشر همجى متوحش ٠

٣ ـ حملة كرومر
على الاسلام والعرب ومصر والشرق

ويمثل كرومر بحملاته المتوالية التي أوردها كتابيه « مصر الحديثة » و « الخديو عباس » وتقاريره السنوية ، صورة الحملة الجماعية على كل مقومات شخصيتنا ومعالمها وتراثنا ووحدتنا وثقافتنا وماضينا .

يقول : ان الاسلام ناجح كعقيدة ودين : ولكنه فاشل كنظام اجتماعى قد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى .. ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة المجتمع الانسانى .. وأن الاسلام يحرم المرأة من كل حقوقها ويعتبرها أحط من الرجل وانه يبيح الرق .. وانه دين متعصب متطرف يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى العقيدة أسرى حرب ورقيقا .. ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب والذين لا تتسع صدورهم لأى تسامح ، فهم لا يفهمون ان الخلاف فى الرأى ليس موجبا للكراهية والحقد .

وقال : ان الاسلام دين مناف للتجديد ، ولم يكن صالحا الا للزمن والمحيط الذى وجد فيهما .. وان المسلمين لا يمكن أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن الا بعد أن يتركوا دينهم .. وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ويثبت فيهم روح البعض للأغيار والشقاق ، وحب الانتقام وان الاسلام على الجملة هو العقلية الكؤود فى سبيل رقى الامة الاسلامية .

وقال : ان الشرقيين أسرع الناس الى تصديق الشائعات ، وهم يتملقون من فوقهم بنفس القدر الذى ينتظرون فيه الملق ممن هم دونهم .. وهم لا يكترثون للمستقبل ، ولا يتبصرون فى العواقب، ولا يرون شيئا لمن يتركونهم من خلفهم وهم يدسون فى الخفاء ، ولا يعملون فى الضوء نتيجة للعصور المتوالية التى عانوا فيها من الاضطهاد ، وهم يؤمنون بالقضاء والقدر ويدفعون ايمانهم هذا الى الرضوخ لكل ذى سلطان .

وقال : ان المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر . وان المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية ..

وفاضل كرومر بين الاسلام والمسيحية وانتصر لديانته ..

الرد على كرومر

وقد رد على كرومر : **مصطفى العلايينى وفريد وجدى ومصطفى المنفلوطى ورشيد رضا ومصطفى كامل وغيرهم ..**

وجملة ردودهم أن كرومر انما قصد الى محاولة تشويه سمعة المسلمين والعرب والمصريين فى العالم الغربى انتقاما منهم .. وان هدفه هو التشفى من السخط الذى واجهه ، وان حملته على الاسلام انما هدم الرابطة التى تعد القوة الأولى فى مواجهة الاستعمار . وان الاسلام لم يكن فى يوم من الأيام مناقضا للمدنية العصرية أو حائلا دونها . وهو لا يناقضها ولكنه لا يقبلها كلها . ويرفض زيفها وانه اذا كانت المسيحية وقفت مانعا أمام المسيحى وبين المدنية والحضارة فان الاسلام ليس مانعا .

وان الاسلام لم يعرف فى عصر من عصوره سلطة البابا على الأمم المسيحية عندما كان يضع القوانين التى لها قدسية الأوامر المنزلة ..

وان ادعاء الغرب بأنه فصل حكومته عن الدين ليس الا اكذوبة ضخمة ، فان فرنسا ماتزال حامية للكاثوليكية ، وملكة انجلترا حامية البروتستانت .

وقد اضطر كرومر أمام الحملة العتيقة الى التراجع فأعلن انه كان يعنى مجموعة القوانين الاسلامية التى تسمى « العقد » وانه لم يهاجم الدين الاسلامى نفسه .

كتب إسلامية

تصدر في منتصف كل شهر عربي

العدد القادم

الأمومة والطفولة في الإسلام

في ١٥ صفر ١٣٨٤هـ

تصدر عن المجلس الأعلى

الفنون الإسلامية

الأستاذ
محمد أحمد العزب

الثمن قرشان

(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)